أنور كامل



الصهيونية

وثيقة تاريخية

أول كتاب ينشر بالعربية عن الصهيونية
في مصر والعالم العربي سنة ١٩٤٤
من وجهة نظر اليسار

مكتبة مدبولي

أنور كامل

الصهيونية

تصدير بقلم
بشير السباعي

الناشر
مكتبة مدبولي
ت: ٧٥٦٤٢١

تصـــــدير

بقـلم : بشـير السباعي

خلال شتاء ١٩٤٣ ـــ ١٩٤٤ ، حصل أنور كامل (ولد عام ١٩١٣) من الشاعر السريالي جورج حنين (١٩١٤ ـــ ١٩٧٣) ـــ مؤسس جماعة « الفن والحرية » (١٩٣٩ ـــ ١٩٤٦) ـــ على نسخة من كراس الشيوعي البريطاني أ. ريناب : **« معاداة السامية والمسألة اليهودية »** ، الصادر بالانجليزية في لندن في عام ١٩٤٣ ، وهو عبارة عن بحث موجز يتضمن تلخيصا للاطروحات الكلاسيكية للتحليل الماركسى للمسألة اليهودية والتى كان أوتو هيلر قد عرضها بهذه الدرجة أو تلك من التماسك فى كتاب: **« اضمحلال اليهودية »** ، الصادر بالالمانية فى فيينا فى عام ١٩٣١ .

وخلال ربيع ١٩٤٤ ، حصل أنور كامل من الكاتب والناشر الماركسى لطف الله سليمان (ولد عام ١٩١٨) على نسخة من كراس أصدره التروتسكيون الفلسطينيون فى أوائل عام ١٩٤٤ تحت عنوان **« حقيقة الصهيونية »** ، وهو عبارة عن رسالة مفتوحة موجهة الى قواعد حزب العمال البريطانى تتضمن تحليلا انتقاديا ماركسيا رائدا يدلل ـــ من الناحية العملية ـــ على صواب استنتاجات ليون تروتسكى (١٨٧٩ ـــ

١٩٤٠) — قائد انتفاضة اكتوبر ١٩١٧ فى بتروجراد ومؤسس الجيش الاحمر — بشأن سبل حل المسألة اليهودية وبشأن الصهيونيـة .

وكان تروتسكى قد ذكر لمراسل شيوعى أمريكى فى فبراير ١٩٣٤ : « ان الدولة الناشئة الالمانية والنزاع العربى — اليهودى على حد سواء يؤكدان بشكل قاطع صواب المبدأ القائل بأن المسألة اليهودية لا يمكن حلها فى اطار النظام الرأسمالى » . وفى أكتوبر من العام نفسه ، قال فى احدى رسائله : « ان الصهيونية تحرف العمال (اليهود) عن النضال الطبقى بتلويحها بأمل ... انشاء دولة يهودية فى ظل النظام الرأسمالى » .

وعلى بعد آلاف الاميال من الشرق الاوسط ، قال تروتسكى فى ١٨ يناير ١٩٣٧ . من منفاه المكسيكى : « ان كل يوم يحمل الينا الدليل على عجز الصهيونيـة عن حل المسألة اليهودية ويتخذ النزاع بين اليهود والعرب فى فلسطين بعدا مأساويا وخطرا باطراد . وأنا على اقتناع تام بأن المسألة اليهودية لا يمكن حلها فى اطار الرأسماليـة الآخذة بالتحلل وتحت اشراف الامبريالية البريطانية ... ان المسألة اليهودية ترتبط ارتباطا لا ينفصل بالتحرر الكامل للبشرية » . وقد حذر العمال اليهود من التجاوب مع النداءات الصهيونيـة ، وأشار ، فى ٢٢ ديسمبر ١٩٣٨ ، الى أن « فلسطين تظهر بوصفها سرابا مأساويا » . وفى ٤ أبريل ١٩٣٩ ، دعا العمال اليهود الى الانخراط فى النضال الطبقى

لبروليتارى بدلا من التجاوب مع النداءات الصهيونية « الذهاب لتقبيل أرض فلسطين » وقبل أسابيع قليلة من اغتياله على يد عميل ستالينى ، أشار الى أن « محاولة حل المسألة اليهودية عن طريق هجرة اليهود الى فلسطين تكشف الآن عن طبيعتها الحقيقية : انها تضليل مأساوى لليهود .. ان خلاص اليهود يرتبط ارتباطا لاينفصل بالاطاحة بالرأسمالية » (يوليو ١٩٤٠) .

وقد أجمع الكتاب المطلعون ، الماركسيون والصهيونيون على حد سواء ، على أن تروتسكى لم يحد عن هذه الاستنتاجات فى أى وقت من الاوقات . ففى أبريل ١٩٧٠ ، ذكر الكاتب الماركسى الامريكى بيتر بوتنى : « ان تروتسكى لم يحد قط عن الاعتقاد بأن النضال من أجل تحرر اليهود يرتبط ارتباطا لاينفصل بمصير النضال من أجل الاشتراكية ». وفى عام ١٩٧٨ ، كتب المؤرخ الصهيونى الاسرائيلى باروخ كنى — باز — الاستاذ بالجامعة العبرية بالقدس — ان تروتسكى قد واصل حث اليهود ، وخاصة العمال اليهود بالطبع ، على ربط مستقبلهم بمستقبل الحركة الاشتراكية الثورية . وقد حذرهم من الانفصال عن العناصر التقدمية ، فى مختلف أرجاء العالم . وظل مقتنعا بأن اليهود لايمكنهم ، بمفردهم ، انقاذ أنفسهم ، أكان ذلك من خلال اطار منظمات مستقلة فى البلدان التى يحيون فيها أم عن طريق دولة قومية » .

وهذا الاستنتاج الاساسى هو الرسالة التى ينتهى كراس

« حقيقة الصهيونية » الى توجيهها الى اليهود • فالخلاص اليهودي يرتبط بالثورة الاشتراكية العالمية ويستحيل أن يتحقق من خلال اضطهاد شعب آخر واغتصاب بلاده : ان شعبا يضطهد شعبا آخر لايمكن أن يكون هو نفسه حرا ! •

والحال ان ما اعتبرته الصهيونية حلا للمسألة اليهودية قد اعتبره تروتسكى — فى يوليو ١٩٤٠ — « مصيدة دموية » •

وكان التجمع التروتسكى الفلسطينى قد تشكل فى أواخر الثلاثينيات اثر احتدام ازمة الحزب الشيوعى الفلسطينى • وقد سارع التجمع فى عام ١٩٣٩ الى اعلان تضامنه التام مع الحركة القومية التحررية العربية الموجهة ضد الانتداب البريطانى وضد المشروع الصهيونى فى آن واحد ، كما أعلن دعمه غير المشروط لمطالب العرب الفلسطينيين المباشرة وعلى رأسها وقف الهجرة اليهودية ، ووقف شراء اليهود للاراضى وتدشين حكم عربى فلسطينى للبلاد •

والحال أن قادة التجمع المذكور قد تعرضوا للاعتقال اثر اعلان هذا الموقف • وكان على رأس التجمع قادة من طراز تونى كليف ، احد القادة الحاليين لحزب العمال الاشتراكى البريطانى الذى يدعو الى تدمير الدولة الصهيونية • وقبل صدور كراس « حقيقة الصهيونية » كان جبرا نقولا (١٩١٢ — ١٩٧٤) قد أصبح واحدا من قادة التجمع البارزين • وقد طرده الصهيونيون من بلاده ومات فى المنفى•

وكان من الطبيعى أن يتحمس أنور كامل ، الماركسى

الامى ، لاستنتاجات الكراسين المذكورين • وقد قرر عرض هذه الاستنتاجات على الجمهور المصرى الذى كانت الحركة الصهيونيـة تحـاول اغراء عنـاصره اليهودية بالاندراج فى مشروعها الاستعمارى ــ الاستيطانى ، وكانت الحركة القومية ــ الاسلامية ، بزعامة حسـن البنـا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) ، تحاول جر عنـاصره المسلمة الى مواقف مستمدة أساسا ــ وياللمفارقة ! ــ من تراث اللاسامية الاوروبية التى كانت قد أخذت تتغلغل فى الشرق العربى على يد عنـاصر مسيحيـة شامية منذ أوائل هـذا القرن ، وكانت الحركة الستالينيـة المصرية ، بزعامة هنرى كورييل (١٩١٤ ــ ١٩٧٨) ، تواجهه بالصمت المخزى ــ حتى عام ١٩٤٤ على الاقل ــ فيما يتعلق بالموقف الذى يجب اتخاذه تجاه الحركة الصهيونية •

لم يتردد أنور كامل فى عـرض استنتاجات الكراسين المذكورين على الجمهور المصرى ، حتى وهو يدرك كل الادراك خطر الارهاب الذى يمكن أن يتعـرض له من جانب عمـلاء الحركة الصهيونية فى مصر آنـذاك ، والذين كانوا يتحركون بحرية غير محدودة ، وخطر الارهاب الذى يمكن أن يتعرض له من جانب القـوميين الديمـاجوجيين ، وخطر الملاحقـات والاضطهاد من جانب السلطات التى لم تكف يوما واحـدا عن ترصد النشاط اليسارى •

كان أنور كامل واحـدا من المثقفـين المصريين الطليعيين الذين ظهروا على مسرح الحياة العامة عند منتصف الثلاثينيات• وقـد أصـدر فى عام ١٩٣٦ « الـكتاب المنبـوذ » ،

وعندما أيد ستالين (١٨٧٩ — ١٩٥٣) قرار تقسيم فلسطين واعترف بالدولة الصهيونية ، مما جر الستالينيين المصريين الى مؤازرة هذا الموقف الذى يشكل ارتدادا عن اللينينية ، استنكر أنور كامل هذه الخيلية السياسية المخزية .

وعندما سئل أنور كامل فى حديث صحفى فى أوائل١٩٨٨ عن سبب رفضه قرار التقسيم ، قال ان السبب يتمثل فى أنه يرفض قيام دولة أو نصف دولة صهيونية فى فلسطين وأنه مازال يرى أنه ان كانت لليهود مشكلة فانها لا تحل عن طريق اقامة وطن قومى لهم فى فلسطين أو فى غير فلسطين وانما تحل عن طريق الثورة العالمية .

ومن الواضح أن هذه الآراء كانت السبب الرئيسى وراء اتفاق مزورى التاريخ — على اختلاف توجهاتهم السياسية — على تعمد اغفال الاشارة — ولو بشكل عابر — الى كراس « الصهيونية » ، أول كراس يسارى بالعربية عن الصهيونية . ولا شك أن هناك مصلحة مشتركة بين هؤلاء المزورين ومنبينهم ، بطبيعةالحال ، تلامذة هنرى كورييل — فى طمس التراث الثورى .

والحال أن صدور طبعة جديدة من هذا الكراس يجيء وسط ظروف تختلف كثيرا عن الظروف التى رافقت صدور الطبعة الاولى .

فالطبعة الحالية تصدر وسط ظروف امتداد عميق لازمة الصهيونية — بشكل لم يسبق له مثيل منذ عام ١٩٤٤ •

ولا شك أن الوجه الرئيسى لازمة الصهيونيـــة يتمثل فى تصاعد الحركة القومية الفلسطينية وعجز الحركة الصهيونيـــة عن القضاء على هــذه الحركة ، عسكريا أو سياسيا ، وذلك رغم كل التــدابير القمعية والمنــاورات السياسية ، المدعومة من الامبريالية •

وتتمثل وجوه أخرى لازمة الصهيونية فى احتـــداد الازمة الاجتماعية — الاقتصــادية التى تجتــاح الدولة الصهيونية وسط ظروف الاحتلال ؛ وتزايد العزلة الدوليــة لاسرائيل ، واحتــداد أزمة القيــادة السياســية الاسرائيليــة ، وفشل السياســة الاسرائيلية فى وقف الارتبــاك والتفسخ الداخلين وفى وقف نزوح اعــداد متزايــدة باطراد من اليهـــود عن اسرائيل •

ومن المؤكد أن تزايد نفوذ اليمين الصهيونى على المسرح السياسى الاسرائيلى والصهيونى لا يمكن أن يكون غير مرحلة فى عملية تفكك الصهيونية والدولة الصهيونية ، كما أشار الى ذلك موشيه ماخوفر ، أحد مؤسسى « ماتزبن » : والاستاذ حاليا بكلية تشيلس البريطانية •

الا أن من المؤكد كذلك أن الانهيــار الكامل للصهيونيـــة لايمكن أن يتحقق بعيــدا عن دينامية الكفاح الثورى الذى يخوضه المضطهدون من أجل التحرر من الاضطهاد • وبهــذا

المعنى ، تكتسب الانتفاضة الفلسطينية أهمية متزايدة باطراد •

أما العامل اليهودى الاسرائيلى فهو لن يكتسب وعيا ثوريا الا بقدر مايكون العداء الجذرى للصهيونية وللدولة الصهيونية هو المكون الرئيسى لوعيه • وأول مكونات هذا العداء الجذرى للصهيونية هو التأييد غير المشروط لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره بنفسه •

* * *

ان صدور طبعة جديدة من كراس « الصهيونية » هو حدث يستحق الترحيب •

بشير السباعى

اليهـــــود

القرارات تتخذ لا من جانب القـــائمين من اليهود بالحركة الصهيونية فحسب بل وأيضا من جانب أكثر من حزب ولحـد فى أكثر من دولـة كبيرة واحـــدة (الحـزبان الجمهـورى والديموقراطى فى أمـريكا ... الخ) بضرورة فتح أبـواب فلسطين على مصاريعها أمام اليهود يهاجرون اليها من بقـاع العالم أكثر مما هاجروا ويكونون فيها وطنا قوميا لهم !

والاحتجاجات تتوالى من الحكومات فى البلاد العربية من الدجلة والفرات شمالا الى وادى النيل جنوبا فى وقت اتجهت فيه هذه الحكومات نحو تحقيق الوحدة العربية ، وشرعت فى التفاهم على خطواتها الأولى . والتصريحات تعلن من الهيئات السياســية فى هذه البــلاد ، يؤيدها من استطاع من اليهود أنفسهم أن يفهم أن المســألة اليهودية لايمكن أن تحـل عن طريق الصهيونية ، وأن الكفاح من أجل حريات اليهود يرتبط كل الارتباط بالكفاح من أجل حريات الشعوب فى الدنيـــا جمعـــاء !

فما الصهيونيـــة ؟ فى أى ظروف نشأت ؟ وما الأغراض الحقيقية التى تسعى اليها ؟

لقد أحيطت هـــذه الحركة بصور من الغموض ولدتهـا أساليب الدعاية الملتوية التى تغذيها وتحدوها وساعد عليهـا

تأرجح القوى فيما كانت تصدره من تصريحات بين ارضاء الصهيونيين حينا وارضاء العرب حيناً آخر ، حسب مقتضيات الظروف والأحوال (ظروف هذه القوى وأحوالها بطبيعة الحال) ، كما ساعد عليها أيضا نقص الثقافة السياسية فى البلاد ، هذا النقص الذى أدى بكثير من الناس ، بل ومن خاصة الناس ، الى أن يعتقد أن فمحاربة الصهيونية محاربة لليهود ، مع أن من بين هؤلاء من يحارب الصهيونية بقوة لا تقل عن قوة محاربة عرب فلسطين أنفسهم لها .

ولهذا فنحن سنحاول هنا (فى وقت برزت فيه فلسطين لتحتل مكانها بين مشاكل الساعة) أن نلقى بعض الضوء على المسألة اليهودية ، متى بدأت فى التاريخ ، وكيف تطورت مع التاريخ ، فنرفع بهذا القناع عن وجه الصهيونية الحقيقى ، أغراضها الاستعمارية ومدى اعتمادها على القوى الكبيرة ، ونحدد الموقف الصحيح الذى يجب أن يقفه اليهود اذا أرادوا لمسألتهم حلا : محاربة الصهيونية والوقوف الى جانب الشعوب المناضلة من أجل الحريات ومن أجل بناء مجتمع جديد لا أساس فيه لأى شكل من أشكال الاضطهاد

العنصرية و « انحطاط » أو « تفوق » الشعب اليهودى

مدرستان خاطئتان : « هتلر — ستريخر » والصهيونية

اليهود أحط بيولوجيا من الآريين ! اليهود أحط بيولوجيا من بقية الشعوب ! اليهود حيوان أحط من الانسان ! صيحة أعلنتها أشد المدارس تطرفا فى الحض على كراهيـة اليهود وأكثرها عنفا فى اشـعال حملات الافناء ضد اليهود : مدرسة « هتلر ستريخر » . ولـكن فى الطرف المقابل مدرسة أخرى لا تقل عن الأولى تطرفا وتعصبا : المـدرسة الصهيونيـة التى يحاول زعمـاؤها ، بأساليب قـد تقل فى جرأتها فى صراحتها عن مدرسة « هتلر — ستريخر » أن يحيطوا الشعب اليهودى بهـالة من التقـديس : فاليهود أرقى بيولوجيـا من بقيـة الشعوب ! واليهود هم « شعب الله المختـار » ! وان كان للشعوب أن تحيا فاليهود هم أحق الشعوب بالحياة !

وبين القطبين المتقابلين يثور النقاش بأساليب شبه علمية ولكنها فى الحقيقة أبعد ماتكون عن العلم . وفى أثناء هذا وقبل هذا وبعده ، تفاجئنا الاحداث الاجتماعية بصور من الفظائع، هى أقسى ما عرفته البشرية من حملات التأديب والتطهير ، تشن ضـد اليهود فيفنى فيهـا مئـات بل الوف من أفراد الشعب اليهودى الابرياء ! فأين الحقيقة ذات الوجه الواحد من هذا كله ؟

الذى لا جدال فيه أن هناك بين الشعوب بعض الفروق، وليس يعنينا ما اذا كانت هذه الفروق الى أسفل أو الى أعلى ، وانما يعنينا فقط أن نعرف ما اذا كانت هذه الفروق طبيعية ثابتة ، أى تعينت مرة واحدة لتبقى على ما هى عليه الى الابد ، أم اجتماعية متحركة أى تولدت من ظروف تاريخية معينة لتتغير فى ظروف تاريخية أخرى • والرد على هذا السؤال يجرنا الى الرد على نظرية العنصرية • فما هذه النظرية ؟ وكيف يمكن أن نفيد من بطلانها فى تحديد موقفنا من كل من المدرستين : « هتلر — ستريخر » والصهيونية ؟

يرى العنصريون فى عنصر معين يطلقون عليه اسم « العنصر المتفوق » ، أو « العنصر التاريخى » ، العلة الجوهرية لتقدم المجتمع • فالتاريخ بأكمله فى نظر هؤلاء معلق على نشاط هذا العنصر المختار الذى لو قدر له ألا يكون لظل المجتمع يرسم خطاه فى جمود الحيوانية •

« والعنصر » اصطلاح من أشد الاصطلاحات الموجودة اختلاطا على الفهم • فمضمونه يتغير تبعا لعلماء الاثنولوجيا، كما يتغير تبعا لرجال السياسة أيضا • ونحن نرى اذا تكلمنا من وجهة نظر علم الانسان أن لهذه الكلمة معنيين : فهى تشير اما الى جماعة من الناس ينحدر كل أفرادها من أجداد أولين دون أن يتغير أصلها الاول خلال آلاف الاجيال المتعاقبة بأى اختلاط مع أفراد ينتمون الى جماعة أخرى ، واما الى جماعة من الافراد لهم بعض صفات معينة لا توجد

عند الجماعات الاخرى (كلون الجلد وشكل الجمجمة وطبيعة الشعر وتركيب الحوض ... الخ) .

و « العنصر » فى المعنى الاول مجرد خيال لانه يتضمن الى جانب نظرية « تعدد الاصل » (البوليجينيزم الجائز تأييده علميا) الامتناع عن كل اختلاط أو تزاوج بين العناصر خلال آلاف الاجيال من الزوج الاول الى الجماعة الحالية . وفى هذا استحالة تاريخية (الا فى بعض القبائل التى تعيش فى حالة عزلة تامة خاضعة لظروف خارجية معينة كما فى استراليا مثلا) .

أما فى المعنى الثانى فان كلمة « عنصر » يمكن أن تستعمل من الناحية العلمية . فنحن نستطيع أن نفرق مثلا بين العنصر الاسود والعنصر الابيض والعنصر الاصفر معتمدين فى هذا على اللون أو طبيعة الشعر . ويمكننا أيضا أن نفرق بين الناس بشكل الجمجمة فنميز بين العنصر الدوليكوسيفالى (الرأس الطويل) ، والعنصر البراشيسيفالى (الرأس العريض) ، والعنصر الميسوسيفالى (الرأس المتوسط) . ونحن نرى من هنا أن لكلمة « عنصر » معنى نسبى ، واننا نستطيع فى هذا المعنى وحده أن نتكلم عن وجود العناصر أو الاجناس المختلفة . ولكن هل هذه الاجناس متساوية جميعا بمعنى أنها تتمتع بصفات طبيعية وعقلية واحدة ؟ لا يمكننا أن نجيب على هذا السؤال اجابة علمية الا اذا اشترطنا تكملته بتعيين العنصر الذى سنقيم فيه المقارنة بين العناصر . ليس هناك عنصر متفوق بطبيعته أو منحط

اليهود فى التــاريخ
فى نظام العبودية وفى النظام الاقطاعى
وفى النظام الرأسمالى

المسألة اليهودية ليست مسألة حديثة • انها ظاهرة قديمة استمرت طوال قرون • والشعور بكراهية اليهود شعور ذو طابع خاص • والتـاريخ لم يشـهد « شـعورا عنصريا » يضارع الشعور بكراهية اليهود فى مدى انتشاره أو فى طول ماضيه • ومن هنا اعتقاد البعض أن المسألة اليهودية مسألة قائمة بذاتها منفصلة كل الانفصال عن المشاكل الاجتماعيـة العامة الاقتصادية والسياسية التى تولدت فى التاريخ • ولكن ليس أكثر من هذا امعانا فى الخطأ • فالمسألة اليهودية قـد تولدت خلال العصور كانعكاس للظروف الاجتماعية التاريخية التى شاهدتها هذه العصور • فاليهـود قـد ظلوا يكونون جزءا من المجتمع منذ حوالى ٣٥٠٠ سـنة ، ومن هنـا فان مشاكل اليهود لا يمكن أن تـكون منفصلة أقل انفصـال عن مشاكل هذا المجتمع • فلنرجع اذن الى التاريخ •

اليهود فى مجتمع العبودية

كانت فلسطين التى نزحت اليهـا القبائل العبرية الاولى مركزا لطرق التجارة فى العالم المعروف وقتذاك • كانت طريقا استراتيجيا وتجاريا تمر خلاله القوافل المحملة بأثمن خيرات الهند وشبه الجزيرة العربية • وهكذا أصبحت التجارة عاملا

هاما فى حيـاة سكان فلسطين القديمة ، فكان هذا من أهم القوى المقررة فى حياة اليهود وفى التطورات التى طرأت على الشعب اليهودى .

وكانت فلسـطين الى جانب هـذا واقعـة بين القوى الامبريالية فى ذلك العهد : مصر وأشور ثم بابل . فسقطت الدولة اليهودية بين المطرقة والسندان فى سلسلة طويلة من الحروب لم تنقطع بين هذه الامبراطوريات . غزتها أشور فى النصف الثانى من القرن الثامن ق.م. وأسرت طبقتها الحاكمة ثم غزتها بابل أو بتعبير أدق غزت البقية الباقيـة منها فى أوائل القرن العشرين ق.م. وأسرت طبقتها الحاكمـة التى كان يتكون معظمها من كبار التجار والملاك وأصحاب الحرف. ولـكن سرعان ماتكيف هؤلاء بالوسط الجديد فساهموا بقسط كبير فى تجارة الامبراطورية . أما من عاد منهم الى فلسطين ليقيم دولة يهودية جـديدة (استمرت وعوامل الانحـلال تتجاذبها الى أن سقطت نهائيا سنة ٧١) فقد وجد فلسطين غير فلسطين . عمها الخراب وقد كانت مركزا للتصـادم بين القوى الامبريالية . وتحولت عنها التجارة وقد شقت طرق جديدة لها شرق البحر الابيض المتوسط وآسيا الصغرى .

فى هذه الظروف تشتت الدولـة اليهودية وتحـولت الى جماعات من اليهود أخذت تستقر فى المدن التجارية الـكبيرة (فى أنطاكية والاسكندرية ثم فى روما) حيث لعبت العناصر المسيطرة من هذه الجماعات دورا خطيرا فى التجارة الـكبيرة بينما عنى فقراؤها بالتجارة الصغيرة والحرف اليدوية . ومن

تضاعفت قوتها أن تلعب دورا خطيرا لا يقل ان لم يزد عن الدور الذى لعبته فى الامبراطورية اليونانيـــة • كان لليهود يمثلون هنـــا حاجة اجتماعية تاريخية • ساهموا فى التوسع التجـــارى بأكبر نصيب وقدموا القروض الضخمة لاباطرة الرومان فمنحهم هـــؤلاء من الامتيـــازات ما نالوه فى ظل الاسكندر • فهل كان يمكن فى مثل هـــذه الظروف أن يتولد لليهود شىء يمكن أن نطلق عليـــه لفظـــة « مسألة » ؟ كلا بطبيعة الحال !

ولـــكن الامبراطورية الرومانية (التى كان قد وصل فيها نظام العبودية الى قمته) قـــد بدأت فى التصدع فبـــدأ فى تاريخها عصر للتقلص الاجتماعى والانكماش التجارى عانت فيه جماهير العبيد الكادحة من استغلال سادتهم المتزايد مالا طاقة لهم عليه فعم السخط وكثرت حوادث التمرد واندلعت الانفجارات الاجتماعية • هنـــا وهنا فقط عمد هؤلاء السادة الى اتخاذ اجراءين : الاول التخلص من اليهود وقـــد كانوا دائنين لجزء كبير منهم • والثانى خلق « كبش فـــداء » من اليهود يتحول اليه سخط الجماهير الثـــائرة • وهكذا بـــدأت حملات التطهير ضد اليهود ببدء التصدع فى مجتمع العبودية القديم • وبعد أن كانت الدولة اليهودية فى فلســـطين مركزا للتصادم بين امبراطوريات الشرق القديمة أصبحت الجماعات اليهودية مركزا للتصادم بين الطبقات • وهكذا بدأت تتـــولد لليهود فى التاريخ «مسألة» ، لا لمجرد أنهم تبعثروا فى الارض جمـــاعات جمـــاعات وانما لانهم كانوا قـــد بدأوا فى ظروف التقلص الاجتماعى والانكماش التجارى يفقدون وظيفتهم ،

أو بتعبير آخر لانهم اصبحوا فى هذه الظروف لايمثلون الحاجة الاجتماعية التاريخية التى كانوا يمثلونها فيما مضى ولـكن هل فنيت الجماعات اليهودية تحت ضغط هذه الحملات ؟ ان شيئا من هذا لم يحدث لان نظاما اجتماعيا جديدا كانت أركانه قد بدأت تستقر وتتوطد : النظام الاقطاعى الذى استطاعت فيه الجماعات اليهودية أن تلعب دورا شبيها بالدور الذى لعبته فى مجتمع العبودية ابان امتداده وتوسعه .

اليهود فى المجتمع الاقطاعى

أحاط المسلمون بالبحر الابيض المتوسط فى القرنين السابع والثامن فى الوقت ذاته الذى أخذت تتوطد فيه أركان النظام الاقطاعى فى غرب أوروبا ، فكان لليهود أن يلعبوا دورا خطيرا فى التجارة بين العالم الاسلامى وأوروبا الاقطاعية . وامتد المجتمع الاقطاعى واتسعت تجارته ونمى نموا اقتصاديا كبيرا ساهم فيه اليهود بقسط كبير حتى بدأ يرتطم بأسوار العالم الاسلامى ، فاتجه الملوك الاقطاعيون نحو توسيع دائرة ممتلكاتهم ، واتجه التجار فى البندقية وجنوه وغيرهما من المدن التجارية الكبيرة نحو السيطرة على موانىء آسيا الصغرى ، وأيدتهم الكنيسة لانها رأت فى غزو أراضى « الكفار » قوة جديدة وثروة جديدة ، فأدى هذا الى اندلاع الحروب الصليبية التى استمرت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان (من أواخر القرن العاشر الى مابعد منتصف القرن الثالث عشر) . فكان لليهود أن يلعبوا دورا خطيرا فى

لهذه الحروب بالاشـــتراك فى تمويلهـــا وتقـــديم القروض اللازمة لها .

كان اليهود يمثلون هنـــا حاجة اجتماعية تاريخية فتمتعوا بحماية الطبقة الحاكمة ومنحهم الملوك والامراء من الامتيازات ما نالوه فى ظل الاسكندر وفى ظل امبراطورية الرومان ، فكان منهم المول والتـــاجر الغنى موضع ثقة الطبقـــة الحاكمة ، وكان منهم المشرف على المـــالية والحسابات الرسمية ، وكان منهم جامع الضرائب . أما فقراؤهم فقـــد ظلوا كما كانوا فى المجتمع القديم يعنون بالتجارة الصغيرة والحرف اليـــدوية . فهل كان يمكن فى مثل هـــذه الظروف أن يتولـــد لليهود شىء يمكن أن تنطبق عليه لفظة « مسألة » ؟ كلا بطبيعة الحال !

ولـــكن الامر لم يستمر على هذا النحو . فنمو المجتمع الاقطاعى قـــدأدى الى نمو المتناقضات الاجتماعية داخلهذا المجتمع . وما أن حل القرن الثالث عشر وفى أعقـــابه القرن الرابع عشر حتى كانت هذه المتناقضات قـــد أخـــذت تندلع وتطفو على سطح الاحداث التاريخية بعنف وشدة . صراع بينجماهير الارقاء الساخطة والنبلاء وصراع بينالبورجوازية الوطنية الناشئة والنبلاء ، صراع متداخل متشابك بين مختلف الطبقات الاجتماعية بـــدأ يؤذن بانهيـــار النظام الاقطـــاعى وسقوط الطبقة التى تمثله . هنـــا وهنـــا فقط لجأت هـــذه الطبقة الى اتخاذ اجراءين : الاول التخلص من اليهود وقد كانوا دائنين لجزء كبير منهـــا ، والثانى خلق « كبش فداء » من اليهود يتحول اليه سخط الطبقات الثائرة . وهكذا بدأت

من جديد حمـلات التطهير ضد اليهود ببـدء التصـدع فى النظام الاقطاعى ، وهكـذا أصـبح اليهود من جديد مركزا للتصادم بين الطبقات : بين الارقاء والنبلاء من جهة ، وبين البورجوازية الناشئة والنبـلاء من جهة أخرى . ولم ينقـذ اليهود من المصير ذاته الا الى أجل محدود التجـاؤهم الى البـلاد الاخـرى التى لم تـكن قـد وصلت فيها الظروف الاجتماعية الى ما وصلت اليه فى غرب أوروبا (الى بولنـدا وليتوانيـا وبعض أجزاء من روسـيا ثم الى الامبراطورية العثمانية فيما بعد) . ولم ينقذ اليهود من المصير ذاته الا فى نطاق ضيق تحولهم الشكلى عن اليهودية واعتناقهم للدين المسيحى كما حـدث فى أسـبانيا حيث لم يسـلم هـؤلاء «المغتصبون» أو « المسيحيون الجدد » من يد (التفتيش) .

ولـكن هل فنيت الجمـاعات اليهودية تحت ضغط هـذه الحملات ؟ ان شيئا من هذا لم يحدث لان نظاما اجتماعيـا جديدا كانت أركانه قـد بدأت تستقر وتتوطـد : النظـام الرأسمالى الذى استطاعت فيه الجماعات اليهودية أن تلعب دورا شبيها بالدور الذى لعبته فى مجتمع العبودية وفى المجتمع الاقطاعى ابان امتدادهما وتوسعهما .

اليهود فى المجتمع الرأسمالى

أدت سيادة الرأسمالية الى تحرر اليهود التـدريجى . فقـد بدأ بسيادتها عصر جديد من عصور الامتداد الاجتماعى والتوسع التجارى ، فكان لليهود أن يلعبوا دورا كبيرا فى هذا الامتداد وفى هذا التوسع . واشترك تجار اليهود فى هولندا

وامبراطوريتها (التى كان قد لجأ اليها عدد كبير من اليهود الفارين من أسبانيا) ثم فى فرنسا وانجلترا وأمريكا بقسط كبير من تجارة العصر ، فأحس البورجوازيون بفائدة اليهود للدولة البورجوازية ، وكان من نتائج هذا أن تحطمت أسوار « الجيتو » (أحياء اليهود) تدريجيا ليخرجوا من حياة العزلة الى حياة المشاركة العملية الهادئة مع جيرانهم من غير اليهود .

وأدى نمو الرأسمالية الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الى كسر رباط الجماعات اليهودية . فالانتاج الصناعى الكبير كان قد بدأ فى اجتذاب الاغنياء من اليهود الى تيار التقدم الرأسمالى . أما فقراء اليهود من صغار التجار وأصحاب الحرف اليدوية فقد بدأوا يتحولون الى صفوف الطبقات العاملة . على أن هذا التحول لم يحدث بطبيعة الحال دفعة واحدة ولا بنسبة واحدة فى البلاد المختلفة . ومرجع هذا أن الانقلابات الرأسمالية لم تتحقق فى هذه البلاد فى وقت واحد ، وانما تحققت فيها فى أوقات مختلفة نتيجة لاختلاف مستوى تقدمها الاجتماعى والاقتصادى. ولعل فى هذا تفسيرا واضحا لحركات الهجرة اليهودية من الشرق (لاسيما من روسيا) الى الغرب (لاسيما الى الولايات المتحدة الامريكية) حيث كان اليهود قد حصلوا على جميع الحقوق الاجتماعية والسياسية التى كان يتمتع بها بقية المواطنين .

وهكذا اختفت المسألة اليهودية مرة أخرى من سطح

الاحداث الاجتماعية ، ووجد اليهود لانفسهم مكانا يحتلونه فى عملية التقدم الاجتماعى ، وبدت الرأسمالية الصناعية « الحرة » كما لو كانت قد استطاعت أن تحل المسألة اليهودية حلا نهائيا .

ولكن النظام الرأسمالى كان قد أخذ فى النمو فخرج من مرحلته « الحرة » ليدخل فى مرحلته الاحتكارية : مرحلة الحرب من أجل اعادة تقسيم العالم بين القوى الرأسمالية الكبيرة التى كانت قد وصلت بانتهاء القرن التاسع عشر الى اقتسام المستعمرات بينها على نحو من الانحاء . واندلعت شرارة الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) لتغرق العالم بأنهار من الدماء . وبلغ الجنين الاشتراكى دور البلوغ فانفصل سدس العالم بثورة أكتوبر عن الدائرة الرأسمالية ليوطد أركان المجتمع الاشتراكى الجديد وعمت العالم الرأسمالى أزمة اقتصادية كبيرة لم يشهد مثلها التاريخ (١٩٢٩ — ١٩٣٣) فاكتسحت موجة التعطل عشرات الملايين من أفراد الطبقات العاملة لتلقى بهم بين فكى الجوع .

المجتمع الرأسمالى آخذ فى التصدع . المتناقضات الاجتماعية ترتطم فى عنف وشدة . صراع بين البروليتاريا والبورجوازية فى النطاقين المحلى والعالمى . وصراع بين البورجوازيين أنفسهم فى النطاقين المحلى والعالمى . وصراع بين المستعمرات والدول المستعمرة . وصراع بين الاتحاد

السوفييتى والعالم البورجوازى . صراع لم يشـهد التاريخ مثـله !

واذن فالى « كبش الفـداء » التاريخى ، الى اليهـود كمركز للتصادم يمكن أن يتحول اليه جزء من سخط الجماهير الثـائرة . استمع الى هتلر وهو يتحـدث الى راوشننج : « ما اليهود الا ضيف كريم قـدمتة الى الديموقراطيـات . فالدعاية المضادة لليهود فى جميع البـلاد تكاد تـكون وسطا لا يستغنى عنه فى مد حماتنـا السياسية . ولسوف ترى أى زمن قصير سوف نحتاج اليه لكى نقلب أفكار ومقاييس العالمكله لا بشىء الا بمجرد مهاجمة اليهودية » !

(The Voice of Destruction, by Dr. Rauschning, New York, 1940).

وهكذا بـدأت منـذ سنة ١٩٣٣ فى أرض ماركس وانجلز اشد الحملات تطرفا ضـد اليهود : فى المـانيا التى نجحت فيهـا الفاشية فى الوصـول الى الحكم بأموال كبار المولين والصناعيين أمثـال كروب وتيسن بل وبعض اليهود ! (ذكر واحـد من هؤلاء اليهود فى حـديث له مع ادجار مورر أنه مستعد « أن يساعد الشيطان نفسه لو اقتنع بضرورة قيادة الحـرب ضـد أكثر المؤثرات تخريبـا فى العالم المعـاصر : الماركسية ! » Edgar Mowrer, Germany (Puts the Clock Back, Penguin Special, p. 93 لتصـبح سـلاحا من اقوى الاسلحة التى لجأت اليهـا الطبقـة الحاكمـة لسحق الحركات الشـعبية . فاليهود فى نظر الفاشيين هم سـبب معاهدة فرساى ! واليهود هم سبب هزيمـة المانيا ! واليهود

هم سبب تضخم النقد ! مساوىء النظام الرأسمالى تنصب على رأس « كبش الفداء » التاريخى ! وتندلع شرارة الحرب العالمية الثانية لتكتسح العالم كله . وتسقط دول أوروبا أمام آلة الحرب الالمانية واحدة بعد واحدة فيما يشبه النزهة الخلوية . ولكن سخط الشعوب فى أوروبا المحتلة لا ينقطع. فالحركات الشعبية تبدأ جزئية هنا وهناك لتلتقى وتتجمع فى حركة كلية عامة . ويلعب « كبش الفداء » التاريخى دوره التاريخى لتحويل جزء من سخط الجماهير ضد الغزاة الالمان . فتقام أسوار « الجيتو » من جديد . وتعلن حملات التأديب والتطهير من جديد . وتقام فى أوروبا لليهود مذبحة جديدة من مذابح التاريخ !

أولئك هم اليهود فى التاريخ . وتلك هى المسألة اليهودية فى التاريخ . واذن فما العمل ؟ سؤال تردد على ألسنة اليهود فى كل زمان وفى كل مكان . سؤال أبرزته الظروف الاجتماعية والتاريخية على لوحة المستقبل . وكان فى نشوء الحركة الصهيونية وجها خاطئا من وجهين للرد على هذا السؤال (الوجه الاخر الصحيح سنعرضه فى نهاية هذا البحث) .

الصهيونيـــــة

او الزحف الى فلسطين

الزحف الى فلسطين !

هذا هو الحل الوحيد الذى يراه زعماء الصهيونية للمسألة اليهودية . فاليهودى فى نظر هؤلاء سيظل « تائها » فى بقاع الارض ، غريبا بين الشعوب ، مهددا بشتى أنواع الضــغط والاضطهاد ، مابقى نظام الاشــياء قائما على ماهو عليه . ولن ينقذه من هذا الضغط ومن هذا الاضطهاد سوى الزحف الى فلسطين : فلسطين الوطن الاول للشعب اليهودى : الوطن الاول الذى قامت فيه الدولة اليهودية !

وليس عجيبا أن ينبت فى رؤوس هؤلاء الزعماء مثل هذا الحل . فالشعب اليهودى بالرغم من سقوط الدولة اليهودية قد ظل محتفظا بروح وطنية عالية نمتها الايديولوجية الدينية فى ظروف الاضطهاد التى لاقتها الجماعات اليهودية المشتتة. والوطنية اليهودية ظـاهرة ولدتهـا أســوار « الجيتو » . ولــكنها لم تتشكل بطابع الصهيونيــة السياسية المعــاصرة (يجب التمييز بين الصهيونية السياســية والحنين الدينى الى صــهيون) الا خلال تطورات تاريخيــة طويلة . فما هــذه التطورات ؟

« الهسكالا » أو الاحياء اليهودى

كانت آمال اليهود فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر منحصرة فى التحرر من الضغط والاضطهاد. وجاءت الثورة الفرنسية وحررت يهود فرنسا من هذا الضغط ومن هذا الاضطهاد . واكتسحت أوروبا موجة من الحروب الثورية حطمت أسوار « انجيتو » فى دولها واحدة بعد واحدة . وكان من جراء هذا أن انعكست « حرية » الثورة الفرنسية ووطنية النظام الرأسمالى الجديد على الثقافة اليهودية فأحيت فيها نهضة جديدة . وأزهرت هذه النهضة التى عرفت باسم « الهسكالا » (Haskalah) أى التنوير فى بولندة وليتوانيا وألمانيا وروسيا . وكان من أهدافها جعل الثقافة اليهودية ثقافة زمنية ، وتطعيم هذه الثقافة بروح العصر العلمية والعقلية ، لتنفصل عن الشعور الدينى القديم الذى كان ينزع نحو العودة الى فلسطين وهكذا دخل الادب الاوروبى ودخلت الفلسفة الاوروبية فى حياة اليهود فأقبل شبابهم المثقف على جيتى وكانت وفيخته وشلنج وغيرهم من انسانيى العصر . ولم تثر « الهسكالا » فى ذلك الوقت ، مع أنها كانت مظهرا فكريا من مظاهر النهضة الوطنية اليهودية، مسألة انشاء وطن قومى لليهود لا فى فلسطين ولا فى غير فلسطين .

الحرية ! المساواة ! الاخاء ! تلك كانت المصادر الثلاثة الوحيدة التى استمدت منها « الهسكالا » وحيها . لقد كان اليهود فى ذلك الوقت يؤمنون بأن « حرية » العصر قد قدمت

لمسألتهم التاريخية حلا لا رجوع فيه ؛ ولـــكن التاريخ أسقط أملهم فى الارض عندما أثبتت وقائعه أن « حرية » العصر لم تقدم للمسألة اليهودية الا حلا مؤقتـــا لم يتخط حـــدود ذلك العصر • فبدأ اليهود يتجهون نحو الصهيونية المعاصرة ، بعد أن رأى فيهـــا اليائسون أملا والساخطون برنامجا •

الصهيونية السياسية المعاصرة

كان ميلاد الحركة فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر أى بتحول النظام الرأسمالى من مرحلتـــــه « الحرة » الى مرحلته الاستعمارية • بل ما هذه الحركة الا انعكاس لتحول النظام الرأسمالى من « الحرية » الى الاستعمارية انعكس على النهضة اليهودية فتحولت من «الهسكالا» الى الصهيونية• ومن البديهى أن انتقـــال النظـــام الرأسمالى من مرحلتـــه « الحرة » الى مرحلته الاستعمارية لم يحدث الا خلال عملية تطور استمرت سنين • ومن البـــديهى أيضا أن التحول فى النهضة اليهودية من « الهسكالا » الى الصهيونية لم يحدث هو الاخر الا خلال عملية تطور استمرت سنين •

فأنت تستطيع أن تلمح بذور الصهيونية السياسية المعاصرة حتى فى أيام « التحالف المقدس » (تلك الردة الاقطاعيـــة التى أعقبت الحروب النابوليونيـــة) عنـــدما كانت الجموع اليهودية تساهم مساهمة فعليـــة فى جميع الحركات التحررية التى أدت الى ثورات سنتى ١٨٣٠ و١٨٤٨ • تستطيع مثلا أن تقرأ فى سنة ١٨٤٠ لليهودى الالمانى موسى هس ما يلى :

« اننـــا سنظل دائما غرباء بين الشعوب • صحيح أن هـــذه الشعوب ســـوف تمنحنـــا بعض الحقوق بدافع من الشعور بالانسانية والعدالة • ولـــكنها لن تحترمنا مطلقا مادمنا قـــد وضعنا ذكرياتنـــا العظيمة فى الصف الثانى » • وتستطيع أن تسمع عنه أنه يرى ضرورة التضحية بحركة التحرر اليهودية اذا كانت هذه الحركة تتعـــارض فى أى بلد من البـــلاد مع الحركة الوطنيـــــة اليهودية (A. Sachar, History of the Jews, New York, p. 350) • وتستطيع أن ترى فى سنة ١٨٧٣ كيف نمى سمولنكين اليهودى الروسى هـــذه الفكرة ، وكيف نادى بأن اليهود شعب ، وأن هذا الشعب فى حاجة الى وطن ينمى فيـــه عبقريته ، وأن هـــذا الوطن يجب أن يكون فلسطين ! وتستطيع أن تحيط فى سنة ١٨٨٢ بما جاء فى كتاب « Auto-Emancipation » (أى التحرر الذاتى) لليهودى الروسى أيضا الدكتور ليوبنسكر من أن تحرر اليهود لن يتحقق الا عن طريق انشاء وطن قومى لهم •

واذن فاذا قلنا ان الصهيونية السياسية الحديثـــة قـــد ولدت فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر فان هذا لايعنى مطلقـــا أن التفكير الصـــهيونى لم يتولد فى رؤوس مفكرى اليهود قبل ذلك الوقت ، وانما يعنى فقط أن الصهيونيـــة لم تتشكل بالطابع السياسى المنظم ، أى لم تتحول الى حركة سياسية منظمة لها برنامج واضح وأهداف واضحة تدور كلها حول بناء دولة يهودية فى فلسطين ، الا فى ذلك العقد •

ولـــكن الوطن القومى لم يتحول من مجرد فكرة تطوف

بروؤس زعمـاء الصهيونية الى حقيقة سياسية واقعة الا فى الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) • فمنذ ذلك الوقت والهجرة اليهودية الى فلسطين تحدث فى نطـاق واسع لم يعرف من قبل (لاسيما بعد وعد بلفور) • والمتتبع لتطورات المسألة يستطيع أن يدرك بسهولة تامة أن هذا التحول لم يكن فى امكان اليهود تحقيقه الا اذا اعتمدوا على القوى الاستعمارية السائدة فى فلسطين ، أو التى لها مصالح فى فلسطين • أما العرب فتلك قوة فى نظر هؤلاء لا يعتد بهـا ، ولا ينبغى أن يحسب حسابها ، أو ينظر بعين الاعتبـار الى آمالها الطبيعية فى تحقيق الاستقلال الوطنى !

التحالف مع القوى الكبيرة

الالتجاء الى القوى الكبيرة ظاهرة تميزت بها الصهيونية منـذ اليوم الاول الذى ولدت فيـه • فالدكتور هرزل وحى الحركة ومنشؤها قـد تأرجح فى سياسته بين أكثر من قوة رجعيـة واحدة • حاول أن يتقرب من السلطان عبد الحميد الثانى المستبد بتركيا وبالامبراطورية العثمانية ، ومن جوزيف تشـمبرلن وزير المسـتعمرات البريطانيـة وأحـد رسل الامبراطورية ، ومن غلهـلم الثـانى امبراطـور المـانيا « الديموقراطى المشار اليه بالبنان » ، بل ومن فـون بليف وزير الداخلية فى روسيا القيصرية ومنظم مذابح اليهود فيها•

أما السلطان عبد الحميد فقد عرضت عليه المساعدة المالية اليهودية مقـابل تأييـده لمشروع فلسـطين ولـكنه لم يهتم

بالموضوع، ومع هذا فان هرزل لم يتردد أيام مذبحة الأرمن، عندما طلب منه السلطان أن يستعمل كافة الوسائل لمنع اثارة هذه المسألة فى الصحافة النمساوية ، فى أن يقدم كل مافى وسعه تنفيذا لهذا الطلب / (His Diary, 2nd Volume, 7th May to 8th July, 1896) . وأما تشمبرلن فقد اهتم بالموضوع ولكنه اقترح أوغنده بدلا من فلسطين فأهمل هرزل الاقتراح لان أوغنده لاتمثل فى نظر الصهيونيين أراضى فلسطين المقدسة التى كانوا يشعرون نحوها بالحنين الدينى. وأما امبراطور المانيا فقد كان يعلم أن فريقا كبيرا من أغنياء اليهود لم ينخرط بعد فى سلك الحركة الصهيونية ، ولهذا فقد اكتفى بالارساليات الدينية كقناع تعمل من ورائه الاستعمارية الالمانية على توطيد نفوذها فى الشرق الاوسط . وأما فون بليف فقد عرضت عليه الصهيونية كوسيلة لسحب عدد كبير من اليهود من الحركة الثورية ولمساعدة روسيا للتخلص من هذا « الفائض » اليهودى ، فراقت له الفكرة وحاول أن يقنع الحكومة الروسية بضرورة استخدام نفوذها لدى السلطان . ومع أن شيئا جديا لم يتم فى الموضوع فان النشاط الصهيونى قد تمتع فى روسيا بقسط كبير من الحرية ، فى الوقت ذاته الذى كانت تضطهد فيه جميع الحركات التقدمية فيها .

وليس عجيبا أن يتجه هرزل هذا الاتجاه . فهو بطبيعة تفكيره عدو من أعداء الديموقراطية ، ودليل هذا كتابه « The jewish State » (أى الدولة اليهودية) ، الذى يعتبر انجيلا للحركة الصهيونية ، والذى تستطيع أن تقرأ فيه أمثال هذه العبارات : « الشعوب أيضا لاتصلح فى الوقت

الحاضر لديموقراطية لا حد لها ، وســوف تصبح أقل وأقل صلاحية لهــا فى المستقبل » (P. 69) • « من المستحيل تكوين سياسة داخلية أو خارجية حكيمة فى اجتماع شعبى •• ومن هنــا فاننى أميل الى الجمهورية الارستقراطية ••• ان كثيرا من نظم البندقية يطوف برأسى » (P. 70)

بل العجيب ألا يتجه هرزل هــذا الاتجاه • فليس من قبيل المصادفة أن يصــدر عنه فى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٥ خطاب الى دوق بادن الــكبير يجىء فيه : « من الواضح أن قيام شعب محايد على أقصر طريق الى الشرق يمكن أن تــكون له اهمية كبيرة للسياسة الشرقيــة الالمــانية • فأى شعب هو المقصود بهذا ؟ اننى أعنى الشعب المضطر بقوة الاشياء الى الانضمام الى الاحزاب الثورية فى كل مكان » • وليس من قبيل المصادفة أن يكتب فى مذكراته ما ياتى وشبيه بما ياتى : « اذا ازدادت شهرة جمعيتنا فان المعادين لليهود سيقومون مع الحكومات بعمل الدعاية لها فى الاجتماعات وفى البرلمانات وفى الصــحف » (Diary, June 15th) « لقــد ربح المعادون لليهود • دعهم يتمتعون بهذا لاننا نحن أيضا سنكون ســعداء • لقــد ربحوا لانهم كانوا على حق ! » (المرجع نفســه) •

ومع أن هرزل لم ينجح مع تشمبرلن فى سنة ١٩٠٢ فان استغلال فكرة انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين كانت منذ زمن بعيد موضع نظر بعض رجال الدولة فى انجلترا • ففى سنة ١٨٣٨ أنشئت فى القدس قنصليــة بريطانيــة هدف من

أهدافها الرئيسية « حمـــاية اليهود بصفة عامة » • واللورد شافتسبورى الذى كان يعارض بشدة فكرة تحرير اليهود فى بريطانيـــا العظمى عنى عنـــاية خاصـــة بمشروع اســـتعمار فلسطين عن طريق « أحفاد ابراهيم » • وكثير من المحافظين غيره كانوا يرون الرأى نفسه ، ان أدبا سياسيا بأكمله قـــد نبت فى منتصف القرن الماضى ليعبر عن فكرة اعادة انشـــاء الدولة اليهودية فى فلسطين •

ولـــكن التحالف الصهيونى لم يصطبغ بالصبغة العملية الا فى الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ ــ ١٩١٨) • والتناقض بين القوى المتعددة التى كانت تتنـــازع على اعادة اقتسام العالم فى هذه الحرب هو الذى عجل فى تحقيق هـــذا التحالف ومظهر من مظاهر هذا التناقض كان يتمثل فى انقسام الحركة الصهيونية نفسها الى فريقين : فريق قوى يؤيد المانيا ويرى فى هذا التـــأييد خدمة للقضية الصهيونية ، وفريق آخر يرى بزعامة الدكتور فايزمان أن خـــدمة هذه القضية لن يكون الا بوضع الحركة الصهيونية تحت تصرف بريطانيا بصفة خاصة والحلفاء بصفة عامة • وفى هذه الظروف ، (ظروف التناقض بين القوتين الكبيرتين) ، دخل فى حساب لويد جورج وآرثر بلفور (الذى أصبح فيما بعد اللورد بلفور) أن فى تأييـــد الحركة الصهيونية كسبا للحلفاء بصفة عامة ، ولانجلترا بصفة خاصة ، وذلك فى أثنـــاء الحرب وفيما بعـــد الحرب • وكان تصريح بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ أحـــد مواليد هـــذه الظروف :

« ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي للشعب اليهودى فى فلسطين وسوف تستخدم خير ما فى وسعها لتسهيل تحقيق هذا العرض على أنه يجب أن يفهم بوضوح أن شيئا ما لن يتخذ للاضرار بالحقوق المدنية والدينية بين الجماعات غير اليهودية الموجودة بفلسطين أو بالحقوق والقوانين السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر » •

وهكذا تحقق التحالف الصهيونى على يد بلفور ، ولم يكن قد انقضى على اتفاقية حسين ــ مكماهون (يوليو سنة ١٩١٥) ، التى وعد فيها العرب بدولة عربية مستقلة مقابل مساعدتهم لبريطانيا ضد الاتراك ، عامان أو أكثر ! ولم تكن المسألة فى نظر السياسة الاستعمارية أكثر من وعود ! (رأس الرمح) الاستعمارى يوجه الى قلب الشرق الاوسط ! تلك هى الصهيونية سافرة غير مقنعة !

استمع الى اللورد ملشت ، أحد المحتكرين الرأسماليين ، وأحد زعماء الصهيونية فى انجلترا : « ان وجود ثلاثة ملايين من الهيود (فى فلسطين) سوف يزيل الى الابد امكانية ثورة مساحة ناجحة تحطم آثار سياسة الانتداب » (Thy Neighbour, 1936, pp. 201-2) (منحت عصبة الامم انجلترا حق الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢) • واستمع الى أوسشكين زعيم آخر من زعماء الصهيونية : « ان فلسطين عربية بحتة معناها أن بريطانيا العظمى سوف ترغم عاجلا أو آجلا على الرحيل وان فلسطين

يهودية الى حد كبير معناها تحالف سياسى خالص .. بين الشعبين اليهودى والانجليزى » (Palestine Review, July 3rd, 1936) واستمع الى المجلة الصهيونية فى وقت اضطرت فيه السياسة الاستعماريه تحت ضغط الحركه الوطنية العربية الى التراجع ولو قليلا فى مسألة الصهيونية : « اننا سنتعاون كما كنا نتعاون دائما وبالرغم من الفشل سيظل تعاوننا أمينا » (zionist Review, November 10th, 1938) . واستمع الى بن جيريون رئيس اللجنه التنفيذية للوكالة اليهودية : « كل من يخون بريطانيا العظمى يخون الصهونية » (المؤتمر الصهيونى الثانى عشر) .

ولم يقتصر مجال التحالف الصهيونى على مسألة فتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين مقابل الخدمات التى يمكن أن تقدمها الصهيونية ، وانما تعدى هذا الى تصدير رؤوس الاموال الى فلسطين . فهناك من بين دعامات الحركة الصهيونية يهود من الانجليز والامريكان يلعبون دورا كبيرا فى عالم رأس المال المالى . وقد بلغ ماصدر من رأس المال الانجليزى لتشغيله بفلسطين ٢٠ مليونا من الجنيهات ، ومن رأس المال الامريكى ١٠ ملايين من الجنيهات . ولم يمنع تغلغل رأس المال الامريكى فى فلسطين على نطاق واسع سوى انهيار سنة ١٩٢٩ وما أدى اليه من سياسة استرجاع القروض الاجنبية التى اتبعتها الولايات المتحدة الامريكية . أما رأس المال الانجليزى فقد تغلغل بشكل ضخم فى فلسطين وتوطدت أركانه فيها نهائيا بقصد الاشتراك فى عملية استغلال الموارد الموجودة بالبلاد .

ولـكن هل نجحت الصهيونية فى تحقيق أغراضها ؟ الجواب بالنفى ! (الـكتاب الابيض ١٩٣٩) •

* * *

ومع هـذا يتشبث الصهيونيون بالصهيونيـة ! كأنمـا ينتظرون تغير الظروف ، أو لعلهم يأملون الاعتماد على قـوة جديدة من القوى الكبيرة (أمريكا مثـلا) ، أو يبحثون عن أسلوب جديد من أساليب الـكفاح ! أما الواقع الاجتماعى والتاريخى الذى ينبىء بأن الحل الصهيونى للمسألة اليهودية حل خرافى من المستحيل تحقيقه فذلك يغض النظر عنه •وأما الحل الصحيح للمسألة اليهودية الذى يتمثل فى كفاح الشعوب من أجل بنـاء مجتمع جديد ، لا أثر فيه لاى شكل منأشكال الاضطهاد ، فذلك لا يعمل له حساب ! •

واذن فليستمر الزحف الى فلسطين : فلسـطين الوطن الاول للشعب اليهودى ! الوطن الاول الذى قامت فيه الدولة اليهـودية ! فليستمر على حسـاب العـرب وضـد ارادة العرب !•

اليهود والعرب فى فلسطين

منذ سنين عديدة والحركة الصهيونية تحاول أن تثبت أنها لاتضر بمصالح العرب المقيمين بفلسطين بل وتحاول أن تثبت أنها تعمل على خدمة مصالح هؤلاء العرب • استمع الى بن جيريون : « يجب الا تمس فى أى الظروف حقوق هؤلاء السكان (العرب) • ان « حالمى الجيتو » وحدهم من أمثال زنجويل هم الذين يستطيعون تصور امكانيه اعطاء فلسطين لليهود بالاضافة الى الحق فى طرد غير اليهود من البلاد • ان أى دولة لا يمكن أن توافق على هذا • وحتى اذا بدا أن هذا الحق يمكن أن يعطى لنا ••• فان اليهود لن يكون لهم أى مبرر ولن تكون لهم أية امكانية فى مباشرة هذا الحق• ليست مهمة الصهيونية أن تطرد السكان الحاليين منفلسطين • واذا كان هذا من أهدافها فانها لن تكون الا مجرد خيال خطر ••• » (From We and our Neighbours, Speeches and Essays, New York, 1915, Hebrew) .

ألفاظ معسولة !

واستمع اليه فى سنة ١٩٢٠ : « يجب ألا تمس فى أى الظروف أراضى الفلاح ••• فهؤلاء الذين يعيشون من كد أيديهم يجب ألا ينتزعوا من أرضهم حتى ولا نظير أى تعويض مالى » (المرجع نفسه) • وفى سنة ١٩٢٤ : « ان مصير العامل اليهودى مرتبط بمصير العامل العربى • انهما سيرتفعان معا ويهبطان معا » (المرجع نفسه) • وفى سنة

١٩٢٦ : « السكان العرب جزء عضوى لا يمكن أن ينفصل عن فلسطين . انهم متأصلون هنا . انهم يعملون هنا وسيبقون هنا . ومع انه ليس من المستحيل فى الوقت الحاضر أن تطرد جماهير غفيرة من الناس من بلد ما بمساعدة القوة المادية فان المجانين أو الدجالين السياسيين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يتهموا الشعب اليهودى بأنه يضمر مثل هذه الرغبة » (المرجع نفسه) .

الفاظ معسولة !

واستمع الى الدكتور فايزمان رئيس المنظمة الصهيونية فى سنة ١٩٢٩ : « الى الان لم تتم حالة واحدة ، وانى لآمل الا تقوم فى المستقبل حالة واحدة ، يطرد فيها عربى من ارضه . لا بطريق مباشر ، ولا بطريق غير مباشر » (من خطاب له فى لندن فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٩) . واذا كان لهذه التصريحات أية قيمة عملية ، فاننا نستطيع أيضا أن نشير الىجابوتنسكى نفسه ، ممثلجناح الصهيونية المتطرف، الذى أعلن غير مرة ، أن من بين مبادئه الاساسية : « أولا المحافظة على المساواة فى الحقوق بين جميع المواطنين بغض النظر عن الجنس أو الدين أو اللغة أو الطبقة وذلك فى جميع نواحى الحياة العامة بالبلاد . وثانيا جعل نائب الرئيس عربيا فى كل وزارة يرأسها يهودى والعكس بالعكس ... الخ » (The War Front of the Jewish People, Hebrew)

الفـــاظ معسولة !

ولـــكن ماذا كانت النتـــائج الحقيقيـــة للنمو الصهيونى بالنسبة الى عرب فلســـطين ؟ بالنسبة الى الفـــلاح العربى والعامل العربى ؟ هذا ماسنكشف عنه القناع هنا .

الصهيونية والفلاحون العرب

يعلن الصهيونيون بنوع من الفخر أنهم قد أدخلوا وسائل الانتاج الحـــديث فى الزراعـــة الفلسطينية ، أى أنهم كانوا عنصرا أكبر من عناصر التقدم فى حياة البلاد . فهل هذا صحيح؟ الجواب بالنفى ، لان وسائل الانتاج الحديث لم تستخدم فى فلسطين الا فى المزارع اليهودية وحدها . أما الفلاح العربى فانه لايزال يستخدم الادوات الزراعية القـــــديمة التى كان يستخدمها أجداده منذ مئات القرون . استمع الى فيلكانسكى: « ان المحراث العربى ليشبه محراث اليهود القدماء . بل ومن الجائز افتراض أن المحراث القديم كان أفضل »

. (Vilkanski : The Fellah's Farm, p. 18)

ان تقدم التكنيك يضاعف انتاجية العمل ، ولكن العربى فى فلسطين لم يفد من هـــذا التقدم شيئا . خذ مثلا انتاج طن من القمح . انه يتطلب فى المزرعة اليهودية ٢ر٥ يوم عمل فى حين أنه يتطلب فى المزرعة العربية ٩ر٥٥ يوم عمل ، أى أكثر من عشرة أمثال . ولا يقتصر هذا الانخفاض على انتاجيـــة الفلاح العربى وحده بل يتخطى هـــذا الى انتاجيـــة مواشيه

وطيوره أيضا . فبقرة الفـلاح العربى تدر فى السنة عـددا يتراوح مابين ٦٠٠ و ٧٠٠ لترا من اللبن ، بينما تدر البقرة فى المزرعـة اليهودية عـددا يتراوح مابين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ . والدجاجة العادية فى المزرعة العربية لاتضع أكثر من ٤٥بيضة فى السنة ، بينما تضع الدجاجة فى المزرعة اليهودية مايقرب من ٢٥٠ بيضة فى السنة ... الخ !

. (Dr. Borovitz, Economic Survey of Palestine, p. 41)

فالمزارع العربية اذن لم تفد شيئا من الالية الحديثة التى لم يدخلها اليهود فى فلسطين الا فى مزارعهم الخاصة . يضاف الى هذا أن الهجرة اليهودية قد طردت عددا كبيرا من الفلاحين العرب من الاراضى التى كانوا يعيشون عليها بعرق الجبين ، وأن الاقتصاد الفلسطينى اليهودى قد وقف عثرة فى سـبيل الاصلاح الزراعى فى البلاد ، وذلك على الرغم من تصريحات زعماء الصهيونية الزائفة ، وعلى الرغم من ألفاظهم المعسولة.

ولقد اضطرت الوكالة اليهودية نفسها فى سنة ١٩٣٠ الى ان تعترف أمام لجنةالتحقيق الحكومية بأن ٦٨٨ من المستأجرين العرب قد طردوا هم وعائلاتهم منمزارعهم فى وادى الجسريل (Report of the Jewish Agency forwarded to Sir John Hope Simpson) . ومن الجـائز أن يكون هـذا الاحصـاء الرسمى أقل من الواقع بكثير . واذا أدخلنـا فى تقديرنا أيضـا الزيادة المطردة التى طرأت على الاسـتعمار الصهيونى منذ سنة ١٩٣٠ الى الان ، فاننا لا نبالغ اذا قلنا

أن بضعة ألوف من المستأجرين العرب قد فقدوا أراضيهم نهائيا .

« ولكنا دفعنا تعويضا كاملا عن الاراضى ! » . هكذا يجيب دجالو الصهيونية . فما هذا التعويض الذى يتمشدقون به ؟ انك لتستطيع أن تقرأ للدكتور جرانوفسكى مدير الخزانة الوطنية اليهودية أن هذا التعويض لم يصل فى المتوسط الى أكثر من ٤١٫٧ جـ . ف عن العائلة (Dr. A. Granovsky Land and the jewish national Fund in Palestine) .

ومن البديهى أن هذا المقدار لم يوزع بالتساوى على المستأجرين . فبعض الاسر كان يتقاضى على سبيل الرشوة نسبة أعلى حتى يتغاضى عن الاضرار التى تلحقها الصهيونية بمصالح العرب ، وبعضها كان يطرد من أراضيه نظير نسبة ضئيلة جدا . يضاف الى هذا أن ديون المستأجرين كانت تدفع من هذه التعويضات . وقد جاء فى تقرير اللجنة الحكومية التى ألفت لدراسة حالة الفلاحين فى سنة ١٩٣٠ أن هذه الديون قد بلغت ٢٧ جـ.ف فى المتوسط (Report of a Committee on the Economic Conditions of Agri-culturists in Palestine, etc., Jerusalem, 1930, Johnson - Crosbie Report).

فهل بعد هذا يمكن أن يسمى هذا التعويض تعويضا كاملا ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

« ولكن شراء الصهيونيين لأراضى العرب قد وضع فى أيديهم مقادير ضخمة من النقود » . هكذا يجيب دجالو الصهيونية . ولكن من هم الذين يبيعون هذه الأراضى الى الصهيونيين ؟ صغار الفلاحين أم كبار الملاك ؟ ان وادى الجسريل بأكمله يكاد يكون قد اشترى من عائلة واحدة (سرسق) حصلت على هذه المساحات الواسعة من الاتراك فى سنة ١٨٧٢ . لقد باعت هذه العائلة لليهود مساحة من الأرض تشمل ٢٠ قرية بما فيها من سكان وبما عليها من مواشى وطيور . وان سميلانسكى أحد زعماء الصهيونية يقرر أن من ٩٠ الى ٩٥٪ من الاراضى التى بيعت الى الصهيونيين كانت فى ملك كبار الملاك ، وأن من ٥ الى ١٠٪ فقط كانت فى ملك صغار الملاك (Mr. Smilansky : Zionist Settlement and the Fellah) . وعلى هذا فان « المبالغ الضخمة التى يشير اليها الصهيونيون لم تذهب الا الى جيوب هؤلاء الملاك الكبار . فهل بعد هذا يمكن أن يقال ان شراء الصهيونيين لأراضى العرب قد وضع فى أيديهم مبالغ ضخمة من النقود ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

ولعل فى هذا تفسيرا للمعارضة الشديدة التى جابه بها الصهيونيون قانون حماية المستأجرين ، وتفسيرا لارتباط التوسع الصهيونى بوجود طبقة من الملاك الاقطاعيين الكبار فى فلسطين . اذ لو كان الفلاح العربى يمتلك الأرض التى يرتبط بها ويعمل فيها مدى الحياة لما استطاع استطاع الصهيونيون اغراءه بأية وسيلة من الوسائل على أن يتنازل

عنها مقابل أى تعويض مالى . ومن هنا محاربة الصهيونية لأى اصلاح زراعى أو أى تحسن فى حالة الفـلاح . وليس أدل على هذا مما جاء فى الخطـاب الصريح الذى ألقاه أوسشكين الرئيس السابق للخزانة الوطنية اليهودية فى مؤتمر للمعلمين : « فى هذه البلاد منظمة خاصة تعنى ببيع الاسمدة الكيماوية. انها تستخدم هيئة بأكملها من المهندسين الزراعيين ينتقلون من قرية الى قرية ويعلمون الفلاح كيف يسمد أرضـه . يضاف الى هـذا أنهم يقـدمون له السماد بالنسيئة وبشروط دفع سـهلة . ومن المؤكد أن هـذا النشاط نشاط مدنى طيب . فالفلاح الذى كان بالامس يكاد لا يستدر من أرضه ربحا ما أصبح دخله الآن يرتفع سنة بعد سنة . ومن الواضـح أن ظروف شراء الأرض ستسوء بتحسن الظروف الزراعية .والى جانب هـذا فان دعاية ضخمة تبذل بين العرب لتأسيس بنك زراعى يخدم الفلاح ومالك الارض الكبير أيضا . ولو تحقق هذا فان شراء الارض سيكون أكثر صعوبة » (امتاز هـذا الخطاب بالصراحة التامة لأنه لم يكن معدا للدعاية الصهيونية العامة) . فهل يمكن بعد هذا أن يقال ان الحركة الصهيونية حركة تقدمية ؟ كلا بطبيعـة الحال ! ولـكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

لقد كان فى طبيعـة الصهيونية أن تقاطع منتجات الفلاح لأن فى مثل هذه المقاطعة مساهمة فى استمرار تأخر المزرعـة العربيـة عن المزرعة اليهودية ، ولأنه بغير هـذه المقاطعـة يكون من العسـير على الصهيونيـة أن تستمر فى التوسع ، ويكون من المستحيل عليها أن تحـافظ على عزلة الاقتصـاد

الصهيونى ، وأن تبقى فى البلاد على مستويين للحياة يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا تاما : مستوى يهودى مرتفع (متوسط دخل أسرة الفلاح اليهودى يتراوح بين ١٠٠ ج و١٥٠ ج فى السنة) ومستوى عربى منخفض (متوسط دخل أسرة الفلاح العربى يتراوح بين ١٥ ج و٢٥ ج قبل الحرب). فهذا الفرق بين المستويين (اليهودى المرتفع والعربى المنخفض) فرق ضخم لا يمكن عبوره عن طريق التكنيك الحديث وحده . ومن هنا فقد كان لابد من خلق قنطرة جديدة يمكن عن طريقها عبور هذا الفرق ، وتمثلت هذه القنطرة فى رفع أثمان المنتجات اليهودية . وهكذا فانك تجد مثلا أن ثمن البيضة المستوردة من المزرعة العربية كان قبل الحرب ملين أو ثلاثة ملات ، فى حين أن بيضة المزرعة اليهودية كانت تباع بستة ملات . وقس على هذا أثمان الخضروات والفواكه المختلفة ... الخ ، فان ثمنها كان أعلى اذا أنتجها اليهود عن ثمنها فيما لو أنتجها العرب . ولكن طرد المنتجات العربية من الاقتصاد اليهودى لم يكن من الممكن تحقيقه وأثمانها أقل من أثمان المنتجات اليهودية الا بالالتجاء الى وسائل العنف . ومن هنا الحوادث التى كان يصب اليهود فيها الكيروسين على الخضروات والفواكه التى كان يجلبها العرب الى السوق اليهودية . ومن هنا حوادث الاعتداءات المتكررة على الفلاحين العرب من الرجال والنساء الذين كانوا يتجاسرون على اجتياز هذه السوق لطرح منتجاتهم فيها . فهل يمكن بعد هذا أن يقال ان الحركة الصهيونية حركة خدمت الزراعة العربية والفلاح العربى ؟ كلا بطبيعة الحال! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

الصهيونيـة والعمال العرب

ويعلن الصـهيونيون بنـوع من الفخر أنهم قـد حولوا فلسطين الى بلاد صـناعية . ولـكن سؤالا بسيطا يبرز فى رأس كل عامل عربى : ماذا كان نصيبه من هذا التقدم ؟

ان ١٨٠٠٠ فحسـب هم الـذين يشتغلون فى الصـناعة العربية.ومن بين هؤلاء ١٠٠٠٠عامل. ولعل فى هذا مايدل على ضآلة المشروعات الصناعية العربية. ان معظم هذه المشروعات لا يضم أكثر من عامل أو عاملين كما أنه ليس فيهـا مشروع واحد يضم أكثر من ١٠٠ عامل . ورأس مال هذه الصـناعة يبلغ حـوالى ٢٥٠٠٠٠٠ ج . ومتوسـط رأس مال المشروع يتراوح بين ٥٠٠ ج و ٦٠٠ ج . انهـا صـناعة بدائيـة لم تستخدم بعد الآليـة الضـخمة كما أن معظمهـا يقـوم على العمـل اليـدوى (Abramovitz-gelfa : The Arab Economy, p. 61 Hebrew) . أما الصـناعة اليهـودية فان ٦٠٠٠٠ يشتغلون فيهـا ، كما أن انتاجها قد بلغت قيمته ٤٠٠٠٠٠٠٠ ج . يضاف الى ذلك أنها مزودة بأحدث وسائل الانتـاج .

فالصهيونية لم تعمل اذن على تحسـين حالة الصـناعة العربية . وهذا طبيعى للغاية . فالاقتصاد الصهيونى لايمكن أن يساعد الصناعة العربية فى الوقت ذاته الذى يعمل فيه على مقاطعة منتجات هذه الصناعة مقاطعة تامة ، وعلى مقاطعـة منتجات الفلاح العربى واليد العاملة العربية فى نطاق واسع. ان « المساعدة » الوحيدة التى يمكن أن يقدمها الاقتصـاد

الصهيونى للصناعة العربيـة هى المنافسـة أى التحطيم • فهل يمكن أن يقـال بعد هذا ان الحركة الصهيونية قد حولت فلسطين الى بلد صـناعى ؟ كلا بطبيعـة الحـال ! ولـكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

وقد يعطى عـدد العمال العرب الذين يشتغلون الآن فى الحكومة فـكرة عن مدى انتشار التعطل بين هؤلاء العمـال قبل الحرب • لقـد كان بعض العمال العرب لايجـد عمـلا بالـكلية وكان بعضهم الآخر لايجد العمل الا لفترة معينة من السنة يلقى بعدها فى جحيم التعطل • ان ١٤ مصلحة حكومية قـد شغلت فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ عـددا يبلغ ١٠٣٤١١ من بينهم ٩٠٠٠٠ عامل عربى (الاحصاءات الحكومية) • يضاف الى هـذا ٣٠٠٠٠ من العرب اشـتغلوا فى الجيش • أى ان المجموع بلغ ١٢٠٠٠٠ •

ان اليهود لم يستخدموا حتى عندما كانت اليد العـاملة اليهودية نادرة أكثر من ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ عامل عربى • ولقد حدث هـذا على الرغم من المعارضة الشديدة التى كان يبديها الصـهيونيون والتى كانت تصـل فى كثـير من الحالات الى استعمال وسائل العنف • فهل بعد هـذا يمكن أن يقـال ان الحركة الصهيونية قـد خدمت العمال العرب فى فلسـطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولـكن الدجل الصـهيونى لايقف عنـد حـد !•

ولطالما نادى بن جيريون نفسه بمثل هذه العبارات : « ان

العمال اليهود لن يكون في مقدورهم مطلقا أن يشتغلوا ٨ ساعات في اليوم اذا أرغم العرب على الاشتغال ١٠ ساعات أو ١٢ ساعة في اليوم . ان العامل اليهودي لن يكون في مقدوره مطلقا أن يحصل على ٣٠ قرشا في اليوم اذا كان العربى يبيع عمله مقابل ١٥ قرشا أو أقل » (We and our Neighbours, p. 74) ان «الهستادروت» (Histadrut أو اتحاد العمل اليهودى) لعلى أتم الاستعداد لقبول جميع عمال فلسطين دون ما تمييز بين الجنسيات أو الاديان » (المرجع نفسه . ص ٧٩) . ولكن المقصود بهذه العبارات المعسولة هو تغطية الحقائق المرة التى ألحقتها الحركة الصهيونية بعرب فلسطين . ففى تل أبيب مثلا حيث يبلغ عدد سكان المدينة ٢٠٠٠٠٠ لا يوجد عامل عربى واحد . والمشروعات الصناعية التابعة للهستادروت تكاد لا تستخدم من العمال العرب أحدا . والتعاونيات المرتبطة بالهستادروت ليس فيها أعضاء من العرب اطلاقا . وعندما تضطر في بعض الأحايين وكالة التعاقد بالهستادروت (Solel Boneh) التى تحصل على عقود بملايين الجنيهات الى طلب عدد من العمال العرب في عقودها العسكرية والحكومية والبلدية فانها لا تدفع لهم الا ثلث أو نصف الاجر الذى يدفع عادة للعامل اليهودى . فهل بعد هذا يمكن أن يقال ان الحركة الصهيونية قد خدمت العمال العرب في فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

الصهيونية والصحة والتعليم بين العرب

ويعلن الصهيونيون بنوع من الفخر أنهم قد ساهموا فى التقدم الصحى والثقافى فى فلسطين العربية . فهل هذا صحيح ؟ من الواضح أن الصحة العامة قد تحسنت فى فلسطين عما كانت عليه من قبل . ومن الواضح أيضا أن نسبة التعليم قد ارتفعت فيها عما كانت عليه من قبل . انها ظاهرة طبيعية اشتركت فيها بلاد الشرق العربى كله خلال السنوات العشرين الماضية . وليس يعنينا هنا أن نبحث الى أى حد ساهمت الحكومة فى كل من هاتين النهضتين الصحية والعلمية . وانما يعنينا أن نكشف القناع عن نصيب الصهيونية فى هذا التقدم ان كان لها فيه أى نصيب .

هناك بعض أرقام لها دلالة واضحة . فمن بين ٦٥٥١٧٥ شخصا ترددوا على المستشفيات اليهودية فى سنة ١٩٤٠ لم يكن هناك سوى ٢٠٣٨ من المسلمين أى بنسبة ⅓ ./. (الملخص الاحصائى لفلسطين ١٩٤١) . فهل بعد هذا يمكن أن يقال ان الحركة الصهيونية قد ساهمت فى رفع مستوى الصحة العامة بين عرب فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

أما التعليم فان المدارس اليهودية المتعددة الموجودة بالبلاد لا تقبل الطلبة العرب اطلاقا . ولقد حدث (وفى هذا مغزى عميق) أن ترك أحد الاغنياء وهو كادورى اليهودى

العراقى فى وصيته مبلغا كبيرا للتعليم الزراعى فى فلسطين فانشأت الحكومة تنفيذا لرغبته مدرسة عربية الى جانب المدرسة اليهودية فما كان من الصحافة الصهيونية الا أن ثارت ثائرتها معارضة منها لفتح المدرسة العربية ! فهل بعد هذا يمكن أن يقال أن الحركة الصهيونية قد ساهمت فى رفع مستوى التعليم بين عرب فلسطين ؟ كلا بطبيعة الحال ! ولكن الدجل الصهيونى لا يقف عند حد !

الصهيونية والحركة الدستورية فى فلسطين

لا يستطيع الصهيونيون أن يعلنوا هنا لا بفخر ولا بغير فخر أنهم قد اشتركوا فى الحركة الدستورية العربية . اذ ليس فى مستعمرات الامبراطورية كلها مستعمرة واحدة فيها نظام أوتوقراطى سافر كما هى الحال فى فلسطين . انها محرومة من أى تمثيل برلمانى بل ومحرومة من أية هيئة استشارية . والحجة التى تتذرع بها الحكومة أمام العرب لعدم تحقيق النظام النيابى فى البلاد تتلخص فى أن الصهيونيين لا يوافقون على تحقيق النظم الديموقراطية فى فلسطين لانهم سيكونون عند ذاك فى الاقلية .

غاية حجة !

ان هؤلاء الصهيونيين أنفسهم يقيمون « حقهم » الباطل فى فلسطين ، و « حقهم » الباطل فى الهجرة التى لا حد لها الى فلسطين ، على قاعدة « الحقوق الديموقراطية »

الشعوب . ومع هذا ينكرون على الشعب العربي حقه العادل في أن يكون له نظام ديموقراطي ، وأن يكون له تمثيل نيابي! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لا يرضيهم أو يكونوا في الاقلية !

غاية حجة !

منذ ستة وعشرين عاما وفلسطين تحكم بمقتضى القوانين الاستثنائية ! منذ ستة وعشرين عاما وكل شيء جائز في فلسطين ! أن يقبض على أي شخص في أي وقت بناء على أمر الادارة ! أن يلقى بأي شخص في السجن لأجل غير مسمى بناء على أمر الادارة ! لا قضاء عادي ولا طرق عادية لتحقيق العدالة ! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لا يرضيهم أن يكونوا في الاقلية !

غاية حجة !

ان هؤلاء الصهيونيين أنفسهم يتشدقون « بتضامنهم » مع الشعوب المكافحة من أجل حريتها (مع الحبشة والصين ... الخ) ، في الوقت ذاته الذي يعلنون فيه حربا سافرة في فلسطين على الحركة الديموقراطية ، ويطلبون فيه أن يحكم عرب فلسطين بيد من حديد ! لماذا ؟ لأن الصهيونيين لايرضيهم أن يكونوا في الأقلية !

فأية حجة !

لقد تخطى بن جيريون نفسه عندما ذكر فى مقال له فى سنة ١٩٢٨ : « من أجل المحافظة على السلم فى البلاد ، ومن أجل حماية جماهير الفلاحين من ملاك الأرض الكبار ، ومن أجل تأمين هجرة اليهود وصيانة حقهم فى الوطن القومى ، يجب استمرار حكم الانتداب » ! نظام أتوقراطى وحماية للفلاح وتوسع صهيونى واستمرار للانتداب ! المتناقضات مجتمعة ! فماذا يمكن أن يسمى هذا ؟ رياء ؟ أم سخرية ؟ أم شر من هذا وذاك ؟.

وبعد :

فتلك نواح أوردناها على سبيل التمثيل لا الحصر !

ولكن ماذا كان موقف الطبقات العربية من التوسع الصهيونى فى فلسطين ؟ ماذا كان موقف ملاك الارض الاقطاعيين ؟ وموقف البورجوازيين ؟ وموقف الطبقات العاملة؟ ان الطبقات العربية كلها باستثناء بعض المتأرجحين الخونة من أفراد الطبقات العليا ثائرة ضد اليهود فى فلسطين . ولكن تحديد موقف كل طبقة من هذه الطبقات يحتاج الى شىء من الاستطراد سنسوقه هنا موجزين .

ثورة الطبقات العربية على التوسع الصهيونى

هوة سحيقة (شرحنا شيئا من تفصيلاتها فيما سبق)

تفصل ما بين اليهود والعرب فى فلسطين • ومن هنـــا تألب الطبقات العربية فى مجموعها على التوسع الصهيونى : طبقة ملاك الارض الاقطاعيين وطبقـــة البورجوازيين ثم الطبقات العـــاملة •

اما ملاك الارض الاقطـاعيين فان أغلبيتهم الساحقـــة معادية للصهيونيين بل ومعـــاديه لليهود كيهود • انهم بحكم طبقتهم يكرهون اى تغير يطرأ على حياة البلاد ويتوقون الى ظروف الماضى وأوضـــاعه : ظروف النظام الاقطاعى الآخـــذ فى التصدع ! ومن هنـــا حملات الارهاب والافنـــاء التى يشنونها ضـــد اليهود • ولـــكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من وجود فريق من بينهم مستعد لاتباع سياسة التوفيق اما مع الاستعمارية على حساب الصهيونية واما مع الاستعمارية والصهيونية معا• ومثل منأمثلة الاتجاه الاول جمال الحسينى الـــذى أعلن مـــرة أنه ليسر اذا رأى فلســطين تتحول الى مستعمرة من مستعمرات التاج مقابل ايقاف الهجرة اليهودية• اما الاتجاه الثـــانى فان عددا من ملاك الارض قد تعاون فعلا معاليهود لأنه رأى فبيع أراضيه اليهم عملية مربحة • أغنى هؤلاء أنفسهم بملايين قليلة من الجنيهـــات ، وما كان يعنيهم بعد هـــذا أن يطرد المستاجر من أرضه أو لا يطرد منهـــا ، ولا كان يعنيهم أنيمنع الفلاح العربى أو لا يمنع منالاشتغال بالارض التى أفلحهـــا قبـــل أن تتحول الى مستعمرة يهودية بعرق الجبين • ويرتبط هذا الفريق بالرأسمالية الناشئة بأكثر من رباط واحد • ومثل من الامثلة البـــارزة لهذا الاتجاه عائلة النشاشيبى •

وأما البورجوازيون ، وأغلبهم من أصل اقطاعى ، فانهم تابعون لرأس المال الاجنبى فى معظم الحالات . فالرأسمالية العربية لم تتم بعد النمو الكافى ، ولم تستقل بعد الاستقلال الكافى ، اللذين يسمحان لها بأن تضع يدها على مفاتيح الصناعة الفلسطينية ، أو أن تنتزع هذه المفاتيح من بين يدى رأس المال الاستعمارى . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان الصناعة الخفيفة بأكملها تكاد تكون فى أيدى الصهيونيين . ومن هنا الصراع الاقتصادى ثم السياسى الذى تخوضه الرأسمالية العربية ضد رأس المال الاستعمارى وضد رأس المال الصهيونى . ولكن نظرا لضعف الرأسمالية العربية من ناحية النمو الاقتصادى ، ونظرا لاعتمادها على رأس المال الاجنبى ، ونظرا لارتباطها بطبقة ملاك الارض ، فان أقساما منها يؤدى بها كفاحها الى المساومة ، ثم الى التعاون على نحو من الانحاء .

وأما الطبقات العاملة ، وهى أدنى الطبقات فى المجتمع العربى ، فان مقاومتها للصهيونيين أشد وأعنف . وليس هذا من مواليد المصادفة . انما هو من مواليد الظروف المادية . فالطبقات الدنيا فى المجتمع العربى هى التى لاقت من التوسع الصهيونى أشد أنواع الضغط وأعنف ألوان الاضطهاد . يضاف الى هذا أنه ليس من مصلحتها ، ولا من مصلحة فريق منها ، أن يتبع سياسة المساومة أو التعاون. وأما الاسطورة التى يحاول الصهيونيون اذاعتها فى الخارج من أن هذه الطبقات أن كانت تخوض حربا ضد هؤلاء الصهيونيين فهى تخوض هذه الحرب ، لا بوحى من نفسها ،

رانما بايعـاز من مهيجى الطبقـات الاقطاعيـة ، فتلك اعذوبة ضـخمة . فالمجتمع العـربى يشـهد اليوم فى فلسـطين حـركة شـعبية آخـذة فى النمو ، ويشهد بالتالى مقاومة للصـهيونية يتناسب عنفهـا مع ذلك العنف . وتحرر الشعب العربى من ويلات الصهيونية مرتبط الى أكبر حد بهذه الحركة الشعبية .

لقـد كان لزحف اليهود الى فلسطين رد فعل طبيعى فى عرب فلسطين . فالدعوة الى الزحف قابلتها دعوة أحد ضـد الزحف . وتلك اليوم صيحة كل عربى فى فلسطين : أيها اليهود ابتعـدوا عن فلسطين ! صيحة يزكيها الكفاح : كفاح الشعوب العربيـة جمعاء ، وكفاح الشعوب المناضلة فى العالم من أجل الحريات . ولسوف يستمر هـذا الـكفاح ، كأعنف مايكون الـكفاح ، حتى يتحقق للشعب العربى فى فلسـطين أمل فى الاستقلال والحرية طال سعيه الى تحقيقه .

ومع هـذا يتشبث الصـهيونيون بالصـهيونية ، كأنما لايستطيع أن يعيش اليهود الا فى فلسطين على حساب العرب وضد ارادة العرب . يتشبثون بهـا الى حد الجنون . وحادث الباخرة « باتوبيا » ليس ببعيد . فمنذ سنوات قليلة ، نسف الصهيونيون بالديناميت البـاخرة « باتوبيا » ، وهى محمـلة بالمهاجرين فى طريقهـا الى جزيرة موريتيوس ، التى كـانت الحكومة البريطانية قد منحتها لهم كملجأ مؤقت ! اما الموت فى قاع البحر واما الخـلاص فى فلسطين ! هـذا هو الاحتجاج الاجرامى الذى وجهته الصهيونية ضد الكتاب الابيض !

ولـكن فى هذه الظروف المتعددة : ظروف تأرجح السياسة الاستعمارية بين اليهود والعرب خدمة لمصـالحها من جهـة ، وظروف ضغط الحركة العربية المضادة لليهود فى فلسطين من جهة أخرى ، برزت الى الوجود أسـطورة جـديدة ، نادى المنادون بها من بين الصهيونيين : فكرة « الوطن المشـترك » أو « الدولة المشتركة » بين العرب واليهود . فمـاذا يقول أنصـار هـذه الفكرة ؟ وهل تستطيع دعوتهم أن تقف أمام الاحداث ؟ انها لاتستطيع ولن تستطيع ؟

الدعوة الى انشاء « وطن مشترك »
بين العـرب واليهود فى فلسـطين

السلم والتعاون مع العرب !

« الوطن المشترك » أو « الدولة المشتركة » بين اليهـود والعرب !

تلك هى الأسطورة الجـديدة التى أعلنها جنـاح ماكر من أجنحة الصهيونية . ولـكن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

وينطوى هذا الجناح على اتجاهين : الاول تمثله حـركة هاشومر هاتسير (Hashoemer Hatsair) التى يؤيدهـا مايقرب من ٢٠٠٠٠ ناخب والثانى تمثله جمـاعة صغيرة من البورجوازيين الاحرار أمثال الدكتور ماجنيز وكالفاريسكى .

أما الاتجاه الاول فان لسانه الناطق باسمه يحمل هـذا

الشمار : « من أجل الصهيونية . من أجل الاشتراكية . ومن اجل التضامن بين الشعوب » . الصهيونية من جهة والاشتراكية والتضامن بين الشعوب من جهة أخرى ! المتناقضات مجتمعة! فكيف يمكن أن يفسر هذا ؟ استمع الى يارى زعيم الحركة : « وحتى لو تحقق الاتحاد العربى فانه لن يضم الا هؤلاء العرب الذين يعيشون فى هذه البلاد . فاذا افترضنا أن بهذه البلاد ١٢ مليونا من العرب (يبدو أن الزعيم قد نسى هنا أن يدخل فى حسابه مصر وغيرها من البلاد العربية) فان بالعالم مالا يقل عن ١٢مليونا من اليهود فى حاجة الى الخلاص الصهيونى . اننا نكافح من أجل حل كامل داخل اطار فلسطين والبلاد المحيطة بها يقوم على قاعدة المساواة بين اليهود والشعوب العربية » ! « ان المشكلة الشاغلة لنا جميعا هى : ما أكثر الطرق عملية أمام اليهود حتى لا يكونوا أقلية فى فلسطين ؟ اننا لا يجب أن نغمض أعيننا عن الحقيقة : عن أن مصيرنا ستقرره القوى الظافرة ، وأننا لن نستطيع فى مدة يوم واحد أن نحصل على الاستقلال فى فلسطين » ! (من خطاب له ألقاه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ أمام المجلس التنفيذى الصهيونى الداخلى لكى يشرح فيه بعض مبادىء حركته) .

وعلى هذا فان حركة هاشومير هاتسير لا تؤيد فكرة الدولة اليهودية فى فلسطين لسببين : الأول أنها غير قانعة بها . اذ يبدو أن شهيتها أوسع بكثير من شهية الصهيونيين الرسميين . فهى لا تكتفى بأغلبية فى فلسطين ، وانما ترغب أيضا فى المساواة العددية بين اليهود والعرب فى فلسطين مضافا اليها

البلاد المجاورة • والثانى أنها تخشى أكثر مما يخشى الصهيونيون الرسميون أن يكون من المستحيل الحصول فى مدة يوم واحد على الاستقلال الكامل فى فلسطين ؛ هذا هو جوهر مذهب « الوطن المشترك » أو « الدولة المشتركة » وجوهر « التضامن العالمى » بين الشعوب الذى تدعو اليه حركة هاشومير هاتسير ! •

واليهود مستعدون بطبيعة الحال أن يعيشوا بسلام مع العرب على هذا الاساس • ولكنهم نسوا شيئا واحدا • نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

لقد وضعت حركة هاشومير هاتسير مقابل البرنامج الصهيونى الرسمى (المعروف باسم تصريح بلتمور والذى يدعو الى تحويل فلسطين الى ملك لليهود) هذه النقط : أولا فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية • ثانيا اقامة نظام سياسى فى فلسطين يوضع تحت رقابة دولية تعطى للوكالة اليهودية الحق فى تنفيذ الهجرة اليهودية طبقا لمقدرة البلاد الكاملة على الامتصاص الاقتصادى على أن ينظر بعين الاعتبار الى حالة اليهود بالبلاد الاخرى فى نهاية الحرب • ثالثا منح الوكالة اليهودية السلطة اللازمة لتنمية البلاد وتعميرها (بما فى ذلك جميع الاراضى المملوكة للحكومة والمساحات غير الآهلة بالسكان) خدمة لمصالح الفريقين مما يجعل الاستعمار اليهودى الكثيف ممكنا وكذلك تقدم الاقتصاد العربى • رابعا اقامة نظام بعد الحرب فى فلسطين يقوم على قاعدة المساواة

السياسية بين الشعبين ويمكن الصهيونية من تحقيق أهدافها دون ما عرقلة ويدفع البلاد نحو الاستقلال السياسى داخل اطار « الوطن المشترك » (Against the Stream, Hebrew Collection of articles) • هذا هو جوهر « الاشتراكية» وجوهر « التعاون » بين الشعبين العربى واليهودى الذى تدعو اليه حركة هاشومير هاتسير ! واليهود مستعدون بطبيعة الحال أن يقبلوا التعاون مع العرب على هذا الاساس • ولكنهم نسوا شيئا واحدا • نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

وأما الاتجاه الثانى (اتجاه بعض البورجوازيين الاحرار امثال الدكتور ماجنيز وكالفاريسكى) فانه غير مؤيد بأيةحركة واسعة • ومع هذا فان لجماعة الدكتور ماجنيز المسماة « ايهود » (Ihud) برنامجا سياسيا يستدعى النظر • استمع اليه فىخطاب أرسله الىمحرر الايكونوميست بتاريخ ٣١ يناير ١٩٤٤ :

« ان جماعة الايهود تؤيد بشدة اتحاد هذه الأقاليم الأربعة (فلسطين وشرق الاردن وسوريا ولبنان) ، ليس فقط لأن مثل هذا الاتحاد سليم من الناحية التاريخية ، وانما ايضا بل وأولا لأننا نعتقد أن مثل هذا الاتحاد يمكن أن يكون عونا باتا لليهود • ان اتحادا كهذا يمكن أن يخلقوسطا اوسع من الجائز أن يعطى للمشلكة الفلسطينية ردا أكرم • فلو تحقق هذا الاتحاد الذى قد يجمع من السكان العرب مايقرب من خمسة ملايين فان العرب لن يكونوا فى حاجة

بعـدها الى الخوف الذى يخـافونه اليوم من أن تكتسحهم الهجرة اليهودية الواسعة . ان بفلسطين اليوم أكثر من نصف مليون يهودى وأكثر من مليون عربى . وما تدعو اليه جماعة الايهود هو السماح للسكان اليهود بأن يبلغوا مبلغ السـكان العـرب أى أن تعطى الفرصـة لنصـف مليون يهودى آخر لدخول فلسطين » ! .

ولـكن هل يستطيع الدكتور ماجنيز أن يجيب على هـذه الأسـئلة ؟

أولا : اذا افترضنا أن هذه الفكرة قد تحققت فما الذى يمنع الصهيونيين من أن يعلنوا خوفهم من الاغلبية العربيـة داخل الاتحاد ؟ من الجائز أن يقترح الدكتـور ماجنيز هنـا المساواة بين اليهود والعرب داخل الاتحاد كله . ولـكن ماذا يكون الحل لو رفض العرب ؟ هل سيقترح الدكتور ماجنيز عنـدها انشاء اتحـاد أوسـع ؟ ثم ألا يكون هـذا توسعا صهيونيا مقنعا ؟

ثانيا : على أى أسـاس يريد الدكتور ماجنيز أن يقنع العرب بأن الصهيونية التى خلقت هوة سحيقة بين المجتمعين العربى واليهودى فى فلسطين وذلك عن طريق المقاطعة التامة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سوف تغير اتجاهها فجأة عندما يزداد عدد اليهود بالبلاد ؟

ثالثا : اذا كان الصهيونيون يريدون حقا أن يكتسبوا ثقة

العرب ، فهل هم على استعداد حقيقى لتصفية هذه المقاطعة الوطنية بشتى صورها ، وهل هم على استعداد حقيقى لتأييد المطالب الديموقراطية التى يكافح من أجلها الشعب العربى ؟

الجواب على كل هذا بالنفى ! وما من عربى سوف يوافق على دخول نصف مليون جديد من اليهود لكى ينضم الى القلعة الصهيونية المغلقة . أما اذا انهارت أسوار هذه القلعة فان هذا سيكون معناه الموت الطبيعى لفكرة الصهيونية التى لن تجد لنفسها مكانا خارج هذه الاسوار . ان برنامج الدكتور ماجنيز وشركاه لا يخرج عن أن يكون ايتوبيا خرافية . وهو الى جانب هذا مؤيد مكشوف للسياسة الامبريالية لانها هى وحدها التى تستطيع أن تقيم التوازن بين الصهيونية وأمانى العرب الوطنية . استمع الى المقترحات التى قدمتها هذه الجماعة الى الوكالة اليهودية فى سنة ١٩٣٠ عن السياسة العربية (يلاحظ أن اسم هذه الجماعة كان فى ذلك الوقت : (Brith Shalom Society

« أن يكون الوضع السياسى لسلطة الانتداب بالبلاد بشكل يضمن الاستقرار فى العلاقات بين الشعبين اللذين يعيشان فى هذه البلاد ويوطد الامن العام فيها ويحمى حدودها ويحافظ على المصالح الخاصة البريطانية والدولية لسلطة الانتداب فى فلسطين » !

هذا هو جوهر « السلم » بين العرب واليهود الذى يدعو اليه الدكتور ماجنيز وشركاه . واليهود مستعدون بطبيعة

الحال أن يقبلوا فكرة « السلم » على هذا الاساس • ولكنهم نسوا شيئا واحدا • نسوا أن العرب يقولون لا وسيقولون لا ! أيها اليهود ابتعدوا عن فلسطين !

« نبتعد عن فلسطين ؟ واذن فأين يكون الخلاص ؟ » هكذا يجيب دجالوا الصهيونية ! وهلا يكون الخلاص الا فى فلسطين ؟ « كبش الفداء » ! تلك هى مأساتكم التاريخية ! والصهيونية لم تخلق لكم شيئا بقدر ما خلقت منكم فىفلسطين كبشا للفداء • ان مصيركم فى فلسطين لن يكون غير السحق بين المطرقة والسندان : بين الأمانى العربية والمطامع الاستعمارية • ان لعنة الاجيال ستنصب عليكم فى قلب الشرق الاوسط فابتعدوا عن فلسطين لأن الخلاص لن يكون فى فلسطين !

« نبتعد عن فلسطين ! واذن فماذا يكون العمل ؟ » • السؤال نفسه يتردد على ألسنة اليهود فى كل مكان • السؤال نفسه تبرزه الظروف الاجتماعية والتاريخية (على الرغم من كفاح الصهيونية الطويل) علىلوحةالمستقبل! وفى كفاحالشعوب العالمى من أجل « الحريات » ضد الدكتاتورية (بشتى صورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المقنعة وغير المقنعة) وفى وقوف اليهود (فقراءهم لا أغنياءهم) الى جانب هذه الشعوب وجه آخر هو الوجه الصحيح للرد على هذا السؤال •

الحل الوحيد
أو الكفاح العالمى من أجل « الحريات »

خرج انتظام الرأسمالى بانتهاء القرن التاسع عشر من مرحلته « الحرة » ليدخل فى مرحلته الاستعمارية كما ذكرنا فيما سبق ، وانعكس هذا التطور على القومية اليهودية فتحولت من « الهسكالا » الى الصهيونية . ولكن تطور الرأسمالى نفسه واندلاع متناقضاته على سطح الاحداث الاجتماعية والتاريخية وارتطام هذه المتناقضات بعنف لم يشهد التاريخ مثله ... كل هذا كان له انعكاس آخر على القومية اليهودية جعلها تأخذ فى التحول من الوطنية المتعصبة الى العالمية المتحررة فاندفع كثير من اليهود (فقراؤهم لا أغنياؤهم) الى السير فى صفوف « الجيش العالمى » المناضل من أجل « الحريات جمعاء » ومن أجل توليد « المركب الاجتماعى الجديد » .

والاتجاه التقدمى ليس اتجاها طارئا على اليهود . فلقد خرج من بين الجماعات اليهودية وتخطى أسوار « الجيتو » عدد كبير من اليهود كان فى طليعة المجاهدين الذين ناضلوا من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية الى جانب زملائهم من غير اليهود فى جميع الحركات التقدمية . ففى أثناء الردة الاجتماعية التى أعقبت الحروب النابوليونية لعب اليهود دورا كبيرا فى حركة التقدم التى قام بها البورجوازيون الاحرار . وهنريك هينى الشاعر اليهودى الكبير كان محاربا من المحاربين فى سبيل الحرية . وماركس المنحدر من أصل يهودى هو الذى

خلق المادية الديالكتية ليقلب بها ايديولوجية النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى أعقابه القرن العشرين رأسا على عقب • وثورات سنتى ١٨٣٨ و١٨٤٨ لم تخل من الكفاح اليهودى ولا ثورة أكتوبر ولا الحرب الاهلية فى أسبانيا فدخلتا منه • وانك لتجد اليوم آلافا من اليهود يقفون جنبا الى جنب مع الحركات الشعبية فى جميع البلاد •

لم يكن اذن هـذا الاتجاه طارئا على اليهود • انما هو انعكاس طبيعى تولد من أسوار « الجيتو » ، كما تولدت منها الصهيونية المعاصرة • ولكن هناك بين الاتجاهين فرقا واحدا ومع هذا فهو كل الفرق • الاتجاه الاول يحرك عجلة التاريخ الى الامام والاتجاه الثانى يحـاول أن يحركها الى الوراء • الاتجاه الاول اتجاه ناجح فى الزمن الطويل وان أصابه بعض الفشل فى الزمن القصير والاتجاه الثانى فاشل فى الزمن الطويل وان أصابه بعض النجاح فى الزمن القصير !

ومن بين الصهيونيين من يزعم أنه من المؤمنين بالمـادية الديالكتية المكافحين من أجل « المركب الاجتماعى الجديد » الذى تبشر به ، ومع هذا يركز جهاده من أجل تحقيق ايتوبيا « الوطن القومى » أو « الدولة اليهودية » ، وحجته الباطلة أن هـذا « المركب الاجتماعى الجـديد » لن يتحقق الا فى المستقبل البعيد • وهم يعلنون هـذا فى الوقت ذاته الـذى يعترف فيه الصهيونيون الرسميون بأن انشاء الوطن القومى فى فلسطين لن يتحقق فى يوم وليلة أى أنه لن يتحقق الا فى

المستقبل البعيــد • فمــاذا يمكن أن يسمى هذا ؟ رياء ؟ أم سخرية ؟ أم شر من هذا وذاك ؟

لقــد لاحظ الصهيونيون أن « تحول المركب الاجتمــاعى الرأسمالى » من « الحرية » الى الاستعمارية قد خلق موجه من الحركات الجمــاهيرية المستقلة تعارض هذا « المركب » وتعارض صور الضغط التى تلازمه بحكم التكوين • لاحظوا هذا ، ولاحظوا أن جماهير اليهود (فقراءهم لا أغنياءهم) قد أخذوا ينضمون الى هذه الحركات الجماهيرية المستقلة ، بعــد أن أدركوا أن الــكفاح من أجل حــرياتهم ، ومن أجل المساواة بين اليهود وغير اليهود فى الحقوق مرتبط بل هــو جزء من الصراع العــالمى الذى تخوضــه الجمــاهير من أجل التقدم ، سواء فى الاقتصاد أو فى السياسة ، والذى سينتهى حتما ان عاجلا وان آجلا « بالمركب الجديد » (مركب الحريات جمعاء) • لاحظوا هذا كله ، وخشوا على الحــركة اليهودية أن تفلت من بين يدى الدعوة الصهيونية ، فخلعوا على أنفسهم « ثوبا عماليا » مزيفا ، خدعوا ببريقه بعض عمــال اليهود ، وزعموا أن الطبقــات العــاملة اليهودية لايمكن أن توفــق ما بينهــا والطبقات العاملة العالمية نظرا للهوة السحيقة التى خلقتها بينهما الظروف الاجتماعية والتاريخية ، فأقامت أسوار « الجيتو » ، وأشعلت حملات التأديب والتطهير ضد اليهود ، وأدت الى نوع معين من عدم الثقة بين اليهود وغير اليهود •

واستمرار لهذا الزيف زعمهم الباطل أنهم يؤمنون بنظرية الصراع بين المتنــاقضات الاجتماعية لا التعــاون بينها ، ف

الوقت ذاته الذى ينادون فيه بضرورة ارجاء هذا الصراع ، على الاقل فيما يتصل بالطبقـات العاملة اليهودية الى مابعد انشاء « الدولة اليهودية » التى يستطيع اليهود فيها وحـدها أن يتضامنوا مع الشعوب فى كفاحها من أجل الحريات . وهم يقيمون زعمهم هـذا على أن الوضع الحـالى الاقتصـادى والسياسى الذى تحتله الجماهير اليهودية الـكادحة لا يسمح لها بأن تخوض مثل هذا الـكفاح . فالتقدم الصناعى قد حطم المركز الاقتصادى الذى كان يحتله مئات الالوف من أصحاب الحرف اليهود ، ولـكنه لم يسمح لهم كما سمح لزملائهم من غير اليهود بالانخراط فى سلك الطبقة العاملة الصحيحة ،وانما جعلهم يقتصرون على الصناعات الثانوية (كالحياكة مثـلا) دون الصناعات الثقيلة الرئيسية التى تكونت هذه الطبقة فى أحضانها ، فالهدف المبـاشر اذن الذى يجب أن يوضع أمام اليهود هو انشاء « الدولة اليهودية » لأن من هذه « الدولة » وحدها يمكن أن تتكون لليهود طبقة عاملة قوية سليمة تستطيع أن تضع يدها فى يد الطبقة العاملة العـالمية . وانك لتستطيع أن تستشف النهاية الحتمية لـكل هذا التفكير : تعـاون فعلى بين المتناقضات الاجتماعية نظير وعد بالصراع فى المستقبل . كفاح فعلى من أجل تحقيق « الدولة اليهودية » على حساب شعب آخر نظير وعد بتحطيم هذه الدولة فى المستقبل . فماذا يمكـن أن يسـمى هـذا ؟ رياء ؟ أم سـخرية ؟ أم شر من هـذا وذاك ؟

فاذا جئت الى نقطة تحديد المكان الذى يمكن أن تقوم فيه هذه « الدولةاليهودية » فانهم لن يتنازلوا عنفلسطين بالذات.

ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ انهم لايستطيعون بطبيعة الحال أن يجيبوا على هذا السؤال اجابة منطقية صحيحة . ان بر بوروشوف نفسه (مؤسس حركة العمل الصهيونية الذى يدعى أنه من أنصار المادية الديالكتية) يدور ويدور حول هذه النقطة ، ولكنه لا يستطيع أن يجيب . انه يعلن « نظرية » لا يقدم لاثباتها أى دليل مؤداها أن حركة يهودية ضخمة كان لابد من أن يقوم بها اليهود نحو فلسطين كانعكاس طبيعى لتزايد الاضطهاد فى ظروف التصادم الحاد بين المتناقضات الاجتماعية ، فى الوقت ذاته الذى يثبت فيه الواقع التاريخى أن هذه الحركة الضخمة اتجهت نحو أمريكا وانجلترا وغيرهما من البلاد ، وأن أقلية يهودية هى التى اتجهت وحدها صوب فلسطين ! ان بوروشوف « الماركسى » المزيف ليتخلى عن المادية الديالكتية ليرتمى فى أحضان المثالية الصوفية ، ان لم يكن لشىء آخر ، فلمجرد اصراره على فلسطين !

ولكن اذا كان بوروشوف وأمثاله يرون أن من العسير على الجماهير اليهودية الكادحة أن تساهم فى خوض الصراع العالمى من أجل الحريات فان هذه الجماهير لاترى هذا الرأى . فالواقع التاريخى يثبت أنها اشتركت فعلا فى جميع الحركات التقدمية التى اندلعت فى روسيا القيصرية ، والتى بلغت قمتها فى أكتوبر سنة ١٩١٧ ، ويثبت أنها لعبت ولا تزال تلعب دورها فى أمريكا وانجلترا وفى غير أمريكا وانجلترا من البلاد التى هاجر اليها اليهود فرارا من الاضطهاد ،

الامر الذى يسـقط زعم بوروشـوف فى الارض (زعمه أن اشتغال اليهود فى الصناعات الثانوية لا الرئيسية يمنعهم من أن يكون لهم أثر كبير مجد فى كفاح العمال العالمى) • وهل دليل على هـذا أكبر من أن الصهيونيـة لم تستطع الى الآن بعد هذه الدعاية الطويلة وبعد هذا الكفاح الطويل أن تجر فى أعقابها الا نسبة صغيرة من يهود العالم ؟ هـذه هى الوقائع ولـكن الاكاذيب الصهيونيـة لا تريـد الا أن تتخطى جميع الحـدود !

ومع هـذا فقـد كان للتفكير الصهيونى أثر على جزء من الجماهير اليهودية الكادحة فى الهجره الى فلسـطين • أما فى العالم فان الاثر لايزال ضيقا محدودا • وأما فى فلسطين فان الاغلبية الساحقة من أفراد الطبقات العاملة اليهودية لاتزال تؤمن بالحركة الصهيونية ولا تزال تـكافح من أجل تحقيـق أهدافهـا القريبـة والبعيـدة • ومرجع هـذا أن اليهود فى فلسطين وضـعا « محليا » يختلف عن وضع اليهود فى جميع بلاد بلاد العالم • فهم أولا يتمتعون فى فلسطين بامتيـازات يتفوقون بهـا على العمال العرب • فأجر العـامل اليهودى يعادل ضعف أو ثلاثة أمثـال أجر العامل العربى • والعـامل اليهودى يشعر بأن له شخصية نسبية لأن للعمال اليهود منظمة قوية معترف بها من الحكومة ومؤيدة من المنظمات الصهيونية• وهم ثانيا يعيشون فى فلسطين داخل اقتصاد صهيونى مغلق، وفى أحضان مجتمع صهيونى بينه والمجتمع العربى هوة بعيدة الغور ، الامر الذى كان له أكبر الاثر على تنمية الاحساس « الطائفى » بينهم • يضاف الى هذا علنا أن حكومات الحلفاء

لم تعن على الاقل فى نظر الصهيونيين العناية الـكافية بحالة اليهود فى أوروبا ، الامر الذى يحمل على تقوية عقيـدة يهود فلسـطين فى أنه لاخلاص ليهود العـالم الا فى فلسـطين • وكذلك رابعا أن القائمين بالدعوة الصهيونية قـد نجحوا الى حد كبير فى تصوير الحركة العربية المضادة للصهيونية كحركة موجهة لا ضـد الصهيونية وانما ضـد اليهود كيهود الامر الذى جعلهم يعتقـدون أن فى تقوية الصهيونية حماية لليهود من « الخطر العربى » !

ولكنا نشهد اليوم فى رحم الصهيونية جنينا مضادا لهـا ولدته المتناقضـات التى خلقتها هذه الحركة • ودرجـة نمو هذا الجنين بين الجمـاهير اليهودية فى فلسطين يرتبط قبـل كل شىء بدرجة نمو الموجة المطالبة بالتحرر العالمى العـام • فاذا وصلت هذه الموجة الى القمة ، وأغلب الظن أنهـا ستتصل اليها فى أوروبا وخارج حـدود أوروبا فى نهـاية هذه الحرب فان الاغلبيـة الساحقة من الجماهير اليهودية فى فلسـطين سوف تترك المعسكر الصهيونى ينعى من بنـاه على حسـاب العرب وضـد ارادة العرب • أما اذا لم يحدث شىء من هذا ورفض اليهود فى فلسطين تأييـد حركة التحرر العربية التى هى جزء من حركة التحرر العالمى العـام فان اليهود سيرتمون عنـدها فى أحضان الاستعمارية التى ستحاول فى ظروف تلك الموجة العامة أن تحافظ على مركزها فى الشرق • وليس من البعيد اذا استلزم الأمر أن تلقى بهم ضـحية على مـذبح « اللعنـة الآتيـة من هـذا الشرق » • ولن يكون فى هـذه الحال مصـير « الدولة اليهودية » خيرا من مصـير « دولة

الارمن » التى أقيمت فى نهاية الحرب الماضية لتفنى نهئيـا بمجرد تخلى الاستعمارية عن تأييدها •

ان التوسع الصهيونى لهو فى حقيقة أمره نكبة من النكبات التاريخيـة تحل هـذه المرة بالجمـاهير اليهودية المقيمـة فى فلسطين أو الزاحفة نحو فلسطين • ولن ينقذ هذه الجمـاهير من الدمار الا شىء واحد هو انهيار الصهيونية •

وبعـد !

فنحن نحارب الصهيونية وسنظل نحاربهـا حربا لاهوادة فيها حتى نشهد مصرعها الاخير : يحاربها العرب فى فلسـطين وتحاربها الشعوب العربية فى البلاد العربية ويحاربهـا جيش « التحرر العالمى العـام » (جيش « التحرر الافقى ») فى أمريكا وفى انجلترا وفى أوروبا وفى كل بقاع الارض • وانـك لتجـد من بين الجمـاهير اليهودية الـكادحة ، نعنى الفقراء لا الاغنياء ؛ فى صفوف هـذا « الجيش » عددا كبيرا آخذا فى النمو والازدياد •

نحاربها هذه الحرب ، لا لأن بنـا كراهية طبيعيـة نحو اليهود ، وانما لأننـا نعتقد ، واعتقـادنا مستمد من الواقع الاجتماعى والتاريخى ، أن الصهيونية حركة استعمارية مركبة (استعمارية بحكم أهدافها الذاتية واستعمارية لاسـتخدام القوى الكبيرة لها) ، وأن نجاح « الجيش الافقى » يتطلب القضاء النهائى على هذه الحركة •

نحاربها هـذه الحرب لا لأن بنـا كراهية طبيعيـة نحو اليهود ، وانما لأننـا نعتقد ، واعتقادنا مستمد من الواقـع الاجتماعى والتاريخى ، أو الصهيونية حركة ولدتهـا أسوار « الجيتو » أو المتناقضات الـكامنة فى « مركب اجتماعى » آخذ فى التصدع ، وأن نجاح القوى التقدمية فى توليد « المركب الجديد » ، وهو « مركب » لن يبقى على سور واحد من هذه الأسوار ، يتطلب القضاء النهائى على هذه الحركة •

نحاربها هذه الحرب ، لا لأن بنـا كراهية طبيعيـة نحو اليهود ، وانما لأننـا نعتقد ، واعتقـادنا مستمد من الواقع الاجتماعى والتاريخى ، أن الصهيونية حركة تعمل على تضليل « جيش اليهود الأفقى » ، وتوجيه كفاحه الى غير وجهتـه المنطقيـة الصحيحة ، بابعاده عن موجة « التحرر العـام » ، وأن نجاح هذه الموجة فى تحطيم جميع القوى الرجعية يتطلب القضاء التام على هذه الحركة •

وواجب اليهـود اليوم (وليس يعنينـا من اليهـود الا فقراءهم) أن يتخلوا نهائيا عن المعسكر الصهيونى سـواء فى فلسطين أو فى غير فلسـطين والا فان نـكبة كبيرة من نكبات التاريخ قد لايدركون الآن مداها سوف تنصب فوق رؤوسهم عاجلا أو آجلا فى قلب الشرق الاوسط !

فيا أيها اليهود فى أنحاء العالم ابتعدوا عن فلسطين !

مصـــادر البحـــث

أولا : مصادر لم يرد ذكرها فى الـــكتاب

اعتمدنا الى حد كبير على مرجعين :

1 — Rennap : Anti - Semitism and the Jewish question.

2 — Socialists of Palestine : The Truth about Zionism (Open Letter to members of the British Labour Party).

ثانيا : مصادر ورد ذكرها فى الـــكتاب

وأشير الى كثير منها فى المرجعين السابقين .

كتب

3 — The Voice of Destruction, New York 1940 Dr. Raushning.

4 — Germany Puts the Clock Back, Penguin Special Edgar Mowrer.

5 — History of the Jeews, New York, A Sachar.

6 — Auto-Emancipation, Dr. Leo Pinsker.

7 — Diary of Dr. Herzel.

8 — Thy Neighbour, 1936, Lord Melchett.

9 — The Jewish State, Dr. Herzel.

10 — We and Our Neighbours, Speeches and Essays, New York 1915, Hebrew, Ben Gurion.

11 — The War Front of the Jewish People, Hebrew, Jabotinsky.

12 — The Fellah's Farm, Vilkansky.

13 — Economic Survey of Palestine, Dr. Borovitz.

14 — Land and the Jewish Construction in Palestine, Dr. A. Granovsky.

15 — Zionist Settlement and the Fellah, Mr. Smilansky.

16 — The Arab Economy, Hebrew, Abramovitz-gelfat.

17 — Against the Stream, Hebrew, Collection of Articles.

خطابات

18 — From Herzel to the grand Duke of Baden, July 10th 1895.

19 — From Dr. Magnes to the Editor of the « Economist », 31 / 1 / 1944.

خطب

20 — Ben Gurion, 19th Zionist Congress.

21 — Dr. Weizmann, London, December 11th 1929.

22 — Yaari, before the Inner Zionist. Exec. Council, Nov. 10th 1942.

23 — Ussishkin, At a Teacher's Conference.

مجلات ومقـــالات

24 — Zionist Review, November 10th 1938.
25 — Ben Gurion, Article, 1928.
26 — Palestine Review, July 3rd 1936, Ussiskkin.

تقـــريرات

27 — Report of the Jewish Agency forwarded to Sir John Hope Simpson, 1930.

28 — Report of a Committee on the Economic Conditions of Agriculturists in Palestine, Jerusalem 1920, Johnson- Crosbie Report.

معاهدات واتفاقيات وتصريحات

29 — The Balfour Declaration, November 2nd 1917.

30 — The Hussein-Mcmahon Agreement, 1915.

31 — The Sykes-Picot Agreement, 1910-

32 — The Biltmore Declaration (Official Zionist Programme).

33 — The White Paper, 1939.

احصـــــاءات

34 — Statistical Abstract of Palestine, 1941.

محتـــويات الكتـــاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩/١٨٧٢
الرقم الدولى ٤ ــ ١١٢ ــ ١٢٢ ــ ٩٧٧

مطــابع الدار البيضاء
١٨ ش مستشفى الدمرداش
القاهرة ــ العباسية ــ تليفون ٢٨٢٥٠٤٦

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel: 756421
طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢